مجلة الدّيوان الثقافية

العدد ١ | تصدر عن الديوان – البيت الثقافي العربي في برلين، باللغتين العربية والألمانية | ٢٠٢٣

مجلة الديوان الثقافية | العدد الأول | ٢٠٢٣

www.derdivan.org

مؤسسة قطر

مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع هي منظمة غير ربحية، تتمحور مهام المراكز التابعة لها وبرامجها ومبادراتها حول التعليم والبحوث والابتكار وتنمية المجتمع وتتكامل مساعيها من أجل تطوير المجتمعات في قطر والعالم. من خلال منظومتنا الفريدة من نوعها، وشراكاتنا مع مؤسسات دولية رائدة، نمضي قدمًا في التصدّي للتحديات الأكثر إلحاحًا في قطر من أجل إحداث التأثير الإيجابي الذي نتطلّع إليه محليًا وإقليميًا ودوليًا، وتمكين أفراد المجتمع من رسم حاضرهم ومستقبلهم.

المدينة التعليمية

المدينة التعليمية، المبادرة الريادية لمؤسسة قطر، هي حرم جامعي يمتد لمساحة تزيد على ٢١ كيلو متـرًا مربعة، ويحتضن فروعًا لمجموعة من أرقى الجهات التعليمية على مستوى العالم، إلى جانب جامعة محلية، وغيرها من المراكز البحثية والتعليمية والمجتمعية.

ومن خلال هذه المؤسسات، أضحت المدينة التعليمية نموذجًا متفرّدًا للتميّز الأكاديمي يتبوّأ سدّة الصدارة في تبني مقاربات جديدة للتعليم العالمي متعدّد التخصصات، وإحراز الإنجازات الكبرى التي تفيد دولة قطر والعالم.

جامعة حمد بن خليفة HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY

جامعة تكساس إي آند أم في قطر TEXAS A&M UNIVERSITY at QATAR

Weill Cornell Medicine-Qatar

جامعة جورجتاون قطر GEORGETOWN UNIVERSITY QATAR

vcuarts QATAR

Northwestern | QATAR

مؤسسة قطر Qatar Foundation

HEC PARIS IN QATAR | في قطر

Carnegie Mellon University Qatar

الناشر: الديوان – البيت الثقافي العربي
شوتس آليه ٢٧–٢٩، ١٤١٦٩ برلين
www.derdivan.org
kontakt@derdivan.org

الاشتراك والشحن:
طلبات أعداد المجلة كنسخة مطبوعة مجانية على البريد الالكتروني:
kulturmagazin@derdivan.org
أو كنسخة رقمية، على الموقع الرسمي:
www.derdivan.org

الهيئة الاستشارية:

د. حمد بن عبد العزيز الكواري، الشيخ عبدالله بن محمد بن سعود آل ثاني، هارتموت فيهندرش، د. شتيفان فايدنر، البرفسور د. رشيد بوطيب، البرفسور د. مروان قبلان، ، البرفسور د. سرجون كرم، أسماء البكر

رئيس التحرير:

د. لورنس الحناوي، د. عبد الحكيم شباط

مدير التحرير:

د. عبد الحكيم شباط

سكرتارية التحرير:

ساندرا نصر

التصميم والإخراج الفني:

إياس بياسي

الترجمة:

البرفسور د. سرجون كرم (عضو هيئة التحرير)، كريستيان كيلنغ

المراجعة اللغوية:

د. شتيفان فايدنر، رائد درويش

دار النشر:
الديوان – البيت الثقافي العربي

دورية الصدور:
ثلث سنوية

في هذا العدد

الغِراءُ الثّقافيُّ؛ الإرث المُوسيقيّ للمسيرةِ الخضراء
ميلينا أبو الفلاح ..... **ص ٤**

تَجلّياتُ الوطن فِي الشّعر الغِنائيّ السُّودانيّ
دة. إشْراقة مُصطفى حامد ..... **ص ١٠**

أن تقبض على روح المدينة متلبسة، تجربة (السايكو–جيوغرافي)، في تفكيك طريقة إحساس المرء بالمكان كتجربة شخصية.
ندى حطيط ..... **ص ١٨**

الوطنُ بين الدُّنيا والآخِرة
هنيبعل كرم ..... **ص ٢٢**

الوطن.. إعادة تعريف، بين الأيديولوجية وملاعب الصبا
سرجون كرم ..... **ص ٢٦**

الوطن بين الارتباط المكاني والعاطفيّ
ديزيريه كايزر ..... **ص ٣٢**

مِن كتاب على قدر أهل العزم
الدّكتور حمد بن عبد العزيز الكواريّ ..... **ص ٣٤**

الوطن في القرآن
كريستيان كيللينغ ..... **ص ٣٨**

مفهوم الوطن شعرياً, ما بين الأدباء العرب والصينين
الكاتب ليو نا ..... **ص ٤٢**

الوطنُ الحلمُ
ريم نجميّ ..... **ص ٤٦**

وطن الشّاعر
سيف الرحبي **ص٤٨**

مسرح الأخوين رحباني: وطن الأغنية ووطن الواقع
د. غوى سعادة **ص٥٠**

تأملات في معنى ‹الوطن› في الكتاب المقدس، ما بين فلسطين وإسرائيل، وربّما لنا جميعاً
د. فيليب سامبتر **ص٥٤**

الوجه الآخر لصورة الوطن في أدب المهجر, ثنائيّة المرارة والحنين
أ. د. جورج طراد ..... **ص ٥٨**

مختارات من الشعر حول الوطن المتخيّل والكيان السياسي
أنطوان يزبك ..... **ص ٦٢**

حقوق النشر:
الديوان – البيت الثقافي العربي
يجوز الاقتباس مع ذكر المصدر. لا يسمح بإعادة الطباعة إلا بإذن خطي من الناشر. المواد المنشورة تعبّر عن رأي كتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، أو هيئة التحرير.

سنة التأسيس ٢٠٢٢ الرمز المعياري الدولي ٤٤٠٧ ٢٩٤١

افتتاحيّة العدد الأوّل من
مجلة الديوان الثقافية

بقلم شتيفان فايدنر

تمثّل مجلّة الديوان الثقافيّة، التي أصدرها مؤخّرًا البيت الثقافي العربي "الديوان" في برلين، جزءًا من تقليدٍ عريقٍ، يمتدّ من غوته بمؤلّفه "الديوان الغربيّ الشرقيّ"، من العام ١٨١٩، والذي استمّدت منه المجلّة اسمها، وصولاً إلى مجلّة "فكر وفنّ" التي أصدرها معهد غوته بين عامي ١٩٦٣ و٢٠١٦ باللغة العربيّة، والتي توليّت رئاسة تحريرها على مدى الأعوام الخمسة عشرة الأخيرة.

يتّسم التبادل الثقافي الألمانيّ – العربيّ إذاً، بتاريخٍ طويل. والجميل في هذا التاريخ، أنّه لم ينتهِ بعدُ، بل تتمّ إعادة إحيائه من جديد، ويواصل مسيرته عبر شخصيّات فاعلة جديدة. لقد تولّى الألمان لفترة طويلة زمام المبادرة، إلا أنّه انتقل الآن إلى الجانب العربي، وهو الأمر الذي نراه في مجلة الديوان الثقافيّة. وهذا أمر جيد وصحيح، إذ أنّ عمليّة التبادل تحتاج إلى مبادرةٍ من الطرفين ليكون التبادل حقيقيّاً. كما تتطلب توفّر الاهتمام لدى الطرفين، والاستثمار فيها، وبذل الجهد في سبيلها، والأهّم: أن يجدا المتعة فيها.

إنّ الثقافةَ قادرةٌ على التغلّب على الاختلافات السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والفكريّة. فهنا تكمن أهميّتها، وهنا تكمن أهميّة مجلّة ثقافيّة مثل "مجلّة الديوان الثقافيّة". فالقصائد العربيّة تُبهر الألمان بقدر انبهارهم بالقصائد الألمانية، وهو الأمر الذي أدركه غوته. وفي المقابل فإن الأصدقاء العرب يقدّرون القصائد الألمانيّة، كما هو حالهم مع قصائد غوته، وهذا ما تظهره الترجمات العربيّة العديدة.

ومن جهة أخرى، لا ينبغي توفّر أيّة معرفة بالثقافة العربيّة للانبهار بالمخطوطات العربيّة أو الزخارف الإسلاميّة أو الافتتان بجوّ المسجد أو بصوت المؤذّن. كما لا يتوّجب على الشخص أن يعرف ألمانيا ليعشق الموسيقى الكلاسيكيّة الألمانيّة، سواء أكانت موسيقى بيتهوفن أم فاغنر أم موسيقى الألمان النمساويّين من موتسارت إلى شونبيرغ. ومن المعروف أنّ العرب هم قرّاءٌ نهمون للفلسفة الألمانيّة.

على ضوء هذه الخلفيّة فإنّي على قناعة بأنّ "مجلّة الديوان الثقافيّة" ستجد النجاح الكبير ، مثلما وجدته بطولة كأس العالم لكرة القدم التي نظّمتها قطر – على الرغم من ضعف أداء المنتخبين الألماني والقطري – والأهمّ من ذلك، أنّ الجانبين القطريّ والعربيّ عموماً لا يدعمان الأحداث والفعاليّات الإعلاميّة الكبرى فحسب، بل ويدرجان أيضاً على جدول أعمالهما سياسة ثقافيّة عميقة وطويلة الأمد. إنّ تأثير الثقافة السياسة الثقافية الجيدة هو تأثير شامل، لكنه يحتاج إلى وقت ومحبّة لينمو ويتطوّر. وبالمقارنة مع استضافة الفعاليّات الكبرى، أو نشاط وسائل الإعلام مثل القنوات الفضائيّة، فإنّ المجلات، تبقى شكلاً من أشكال التواصل غير المرهق مالياً، ولكن الفعّال للغاية، إلى جانب محتواها القيّم جداً.

وتشهد الطرفة الصغيرة التي عايشتها مؤخّرًا في أحد المعارض العربية للكتاب على مدى الأهميّة التي تحملها المجلات في طياتها. إذ التقيت في هذا المعرض بزميلي

المترجم التركي محمد حقّي صوتشين، الذي تعرّفت إليه في مؤتمر لمجلة "العربيّ" في الكويت، حيث لي محمّد – وهو أستاذ اللغة العربيّة في جامعة أنقرة – بالدور المهمّ الذي لعبته في ما مضى مجلّة "فكر وفنّ" بالنسبة له شخصيّاً.

إذ لم تكن المكتبات في أنقرة تضمّ في تسعينيّات القرن الماضي إلا عددًا يسيرًا من الكتب العربيّة المعاصرة، ولم يكن الانترنت موجودًا وقتها. فكانت أُولى القصائد العربيّة المعاصرة التي اطلّع عليها محمّد وترجمها، هي القصائد التي اكتشفها في هذه المجلّة بالتحديد، أي في المجلّة التي كتبها الألمان للعرب. ففيها قرأ للمرّة الأولى نصوصًا لأدونيس ومحمود درويش، اللذين قام بترجمة قصائدهما في ما بعد.

بكلمات أخرى، لقد لعبت ألمانيا دورًا مهمّا في تعريف الأتراك بالشعر العربيّ الحديث. فمن كان يحسب أنّ ذلك ممكنًا؟

تكشف لنا هذه القصة عن الامكانيّات غير المتوقّعة، المكنونة والمحتجبة في المجلات الثقافيّة مثل "فكر وفنّ" و"مجلّة الديوان الثقافيّة". فالمجلات الثقافيّة يمكن أن تكون مُلهمة وتمهّد الطريق أمام تأثيرات لا يمكن التنبّؤ بها اليوم. فهذه المجلات ليست مجرد منشورات، بل تُمثّل أرشيفات وشبكات اتصال وتواصل.

إنّها بمثابة أرشيفات لأنّها توثّق حِقبًا زمنيّة بعينها، وبما تحتويه من علمٍ وطرائق تفكير، تحافظ عليها، وتصونها على متن صفحاتها. وهي شبكات اتصال لأنّها تحقّق الترابط والتواصل بين الناس متجاوزة بذلك جميع الحدود. فهي صلة وصل بين القائمين عليها، على سبيل المثال الموظّفين في "مجلّة الديوان الثقافيّة"، وبين سفارة قطر والكاتبات والكتّاب والمترجمات والمترجمين في ألمانيا وأوروبا والعالم العربيّ. ومن ناحية أخرى تخلق مثل هذه المجلّة بالطبع روابط عديدة مع القرّاء الذين يعيشون في جميع أنحاء العالم، وقد يكون بعضهم من المؤلّفين والصحفيّين والأكاديميّين والمترجمين.

مثل هكذا مجلّة لا يعتريها نقص في الموضوعات، كما نستدلّ على ذلك من العدد الأوّل المتمحور حول موضوع "الوطن". أتطلّع إلى صدور هذا العدد، بالإضافة إلى الأعداد الأخرى القادمة من "مجلّة الديوان الثقافية"، ويسعدني أن تتابع فكرة إصدار مجلّة ثقافيّة متعدّدة اللغات، الحياة، بهذه الطريقة الجميلة، وأن تتمكن أيضًا من خلق ونشر الأثر الرائع في المستقبل.

اسطنبول، حزيران ٢٠٢٣

الغِراءُ الثّقافيُّ؛
الإرث المُوسيقيّ للمسيرةِ الخضراء

ميلينا أبو الفلاح *

يتعلّم طُلاب العلوم السّياسيّة كيفيّة تعريف "الدولة" في الفصل الدراسيّ الأوّل، اِنطلاقًا مِن نظريّة العناصر الثلاثة "لجورج جيلينيك". فوفقًا لهذه النظريّة فإنّ وجود دولة يتطلّب توفّر أرض، دولة، وشعب دولة وسلطة دولة.

غالبًا ما يتمّ انتقاد هذا التعريف على أنّه ناقص وغير كافٍ. فالبعض يرى أنّ التّعريف يفتقر إلى عنصر الدستور، وآخر إلى التمثيل القانونيّ الدّوليّ، فِي حين يذهب البعض الآخر ويرى أنّه يفتقر إلى اعتراف الدول الأخرى.

ولكن ماذا يحدث حين يقع الخلاف بين سلطات الدّولة المُتنافسة؟ مَن يُحدّد المنتمين إلى شعب الدولة، وأين تتوقّف حدود أراضي الدولة، ومَنْ له السلطة على أيّ شعب وعلى أيّة منطقة؟ بكلمة أخرى: ماذا لو رفع الأفراد الذين يتشكّل منهم شعب الدولة أصواتهم؟

منذ المسيرة الخضراء في السادس من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٥م، يُسيطر المغرب على منطقة الصّحراء الغربيّة. فبعد أن تخلّت إسبانيا عن مطالبها في مستعمرة «الصّحراء الإسبانيّة» السابقة، قامت مملكة شمال إفريقيّة (المغرب) بضمّ المنطقة الواقعة جنوب المغرب من خلال «المسيرة الخضراء» التي نظمتها الدولة والمجتمع المدنيّ، كما عملت على مغربتها (جعلها مغربيّة) على مرّ السنين من خلال استراتيجيّات حكوميّة. وهكذا تمّ الاستحواذ على الصحراء الغربيّة من قبل سلطة الدولة المغربيّة عبر إطلاق تسمية «المقاطعات الجنوبية» أو «الصحراء المغربيّة» في الخطب الملكيّة. ويفرض التواجد العسكريّ للقوى الأمنيّة المغربيّة واقعَ ضمِّ هذه المنطقة حتّى يومنا هذا. وقد تمكّنت الحكومة المغربيّة عبر تكتيكات مختلفة من تعطيل الاستفتاء الذي دعت إليه الأمم المتحدة من أجل تحديد وضع هذه المنطقة.

من جهتها أخذت جبهة البوليساريو (الجبهة الشعبيّة لتحرير السّاقية الحمراء ووادي الذهب) موقفًا معاديًا لمطالب المغرب في الإقليم. ومنذ إعلان وقف إطلاق النار في عام١٩٩١م، بعد سنوات من النزاع المُسلّح، تكرّرت المواجهات بين البوليساريو وقوّات الأمن المغربيّة. فجبهة البوليساريو تدّعي حقّها في تمثيل الصحراويّين، أي سُكّان منطقة الصّحراء الغربيّة. ولهذه الغاية أعلنت في عام ١٩٧٦م، من المنفى الجزائريّ قيام جمهورية الصّحراء العربيّة الدّيمقراطيّة كأرض دولة وسلطة دولة لشعب الدولة الصحراوي، الأمر الذي يتناقض والتعريف المغربيّ للصحراويّين. وفقًا للدستور المغربيّ لعام ٢٠١١م،

فإنّ «الصَّحراويّ»، هو أحد المكوّنات الإثنية أو الثقافيّة المتعددة للهويّة المغربيّة، وبالتالي فإنّ «الصحراويّين» ينتمون إلى الشعب المغربيّ داخل الحدود التي حدّدتها المملكة عبر المسيرة الخضراء.

بطبيعة الحال، فإنّ التصوّرات السياسيّة حول إقليم الدولة له تأثير على الناس: فمن نشأ منذ نعومة أظفاره مع خرائط مغربيّة تظهر الصحراء الغربيّة كجزء من المملكة، فإنّه يعتبر المنطقة الصحراويّة تنتمي بالتأكيد إلى وطنه. ويصاحب عمليّة رسم حدود الدولة من قبل سلطة الدولة عنصر ثقافيّ لا يؤكّد فقط على «مغربيّة الصحراء» بل يحتفي به أيضًا. أحد رموز هذا الترسيخ الثقافي للمسيرة الخضراء في أذهان الناس هو موسيقى وكلمات المسيرة الخضراء التي ابتكرها الفنّانون بعد أن قام الملك الحسن الثاني آنذاك بالإعلان عنها. من الأمثلة على ذلك أغنية «نداء الحسن» التي أطلقت عليها صحيفة «أنفاس بريس» اسم «النشيد الوطني الثاني» للمغرب، ويتمّ سماعها في مناسبات اجتماعيّة مختلفة، في الملاعب أو في المهرجانات المدرسيّة. ويقوم الموسيقيّون المغاربة مثل «فرقة جبارة» بتحميل الإصدارات الحديثة لهذه الأغنية على قناة اليوتيوب. كلّ هذا يجعل عُمق فكرة «مغربيّة» الصّحراء واضحًا لدى المُجتمع المغربيّ ومدى تأثير الحدث الوطنيّ للمسيرة الخضراء بالنسبة للتأريخ والهويّة الاجتماعيّة للمملكة منذ عام ١٩٧٥م، وصاعدًا.

إنّ قضيّة الصّحراء الغربيّة توحّد حتّى المعارضين مع مؤيّدي الحكومة. هذا ما يبدو جليًا لدى فرقة «جيل جيلالة» المغربيّة التي اشتهرت منذ فترة طويلة على أنّها مجموعة احتجاجيّة، غير أنّها آزرت مشروع المسيرة الخضراء الحكومي بأغنيتها «العيون عينيا». الأمر الذي اعتبره البعض فاقدًا للمصداقيّة. وفي الواقع فإنّ والد العاهل المغربيّ وسلفه الملك محمد الخامس قد دافعا بدورهما بالفعل عن مطلبهما بالصحراء الغربيّة متبنّيان بذلك فكرة حزب الاستقلال المعارض، الذي كان قد نشر في خمسينيّات القرن الماضي فكرة «المغرب الكبير»، الأمر الذي يفسّر سبب اتّباع فرقة احتجاجيّة لخطّ

ومنذ إعلان وقف إطلاق النار في عام١٩٩١م، بعد سنوات من النزاع المُسلّح، تكرّرت المواجهات بين البوليساريو وقوّات الأمن المغربيّة.

الحكومة، كما جاء على لسان عضو الفرقة محمد درهم: «هل هناك مغربي ضدّ الوحدة الترابيّة؟».

تستخدم أغاني المسيرة الخضراء «نداء الحسن» و»العيون عينيا» تسجيلات مختلفة ساهمت في إضفاء الشرعيّة على المسيرة. كلتا الأغنيتين تتبنّى بشكل غير مباشر فكرة الوطن التي تعتبر الصحراء الغربيّة جزءًا أساسيًّا مِنه. فأغنية «العيون عينيا» تعرض في المقام الأوّل الارتباط العاطفيّ والعائليّ بالصحراء الغربيّة، في حين تمثّل أغنية «نداء الحسن» الوطن مرادفًا للأمّة. لا يمكن رفض هذه الأغاني باعتبارها دعاية للحكومة الملكيّة، إذ لم يتمّ تكليف أصحابها من قبل الأوساط الحكوميّة. كلّ ما في الأمر أنّ الخطب الملكيّة بخصوص المسيرة الخضراء قد ألهمت فرقة جيل جيلالة والموسيقي عبدالله عصامي لمواكبة هذا الحدث الوطني موسيقيًّا.

أمّا أغنية «نداء الحَسن» الّذي تمّ تقديمها مِن قبل كورال موسيقيّ عَلى أنّها رمز للشعبِ، فإنّ لها تأثير النّشيد الوطنيّ. ولهذا السّبب أصبحتْ «أغنية للمغاربة كُلهم» على حدّ قول صحيفة «هسبريس». وعَلى عكس النّشيد الوطنيّ المغربيّ الأصليّ، فإنّ نشيد «نداء الحسن» ليس مكتوبًا باللّغة العربيّة الفصحى، إنّما باللّهجة المغربيّة الدّارجة. فالأمر هنا يتعدّى وصولها إلى أكبر عدد ممكن مِن النَّاس فِي المَغرب، إذ إنّ اِستخدام اللّهجة الدارجة يظهر أيضًا «أنّ الأمر

> **ليس بالضرورة أن تدفع الموسيقى والشّعر بالصراعِ نحو التّطرّف، إلا أنهما يرسيان الهياكل الفكريّة التي رسّختها المَسيرة الخضراء في الذاكرة الجمعيّة للمغاربة ويجعلانها تبدو طبيعيّة.**

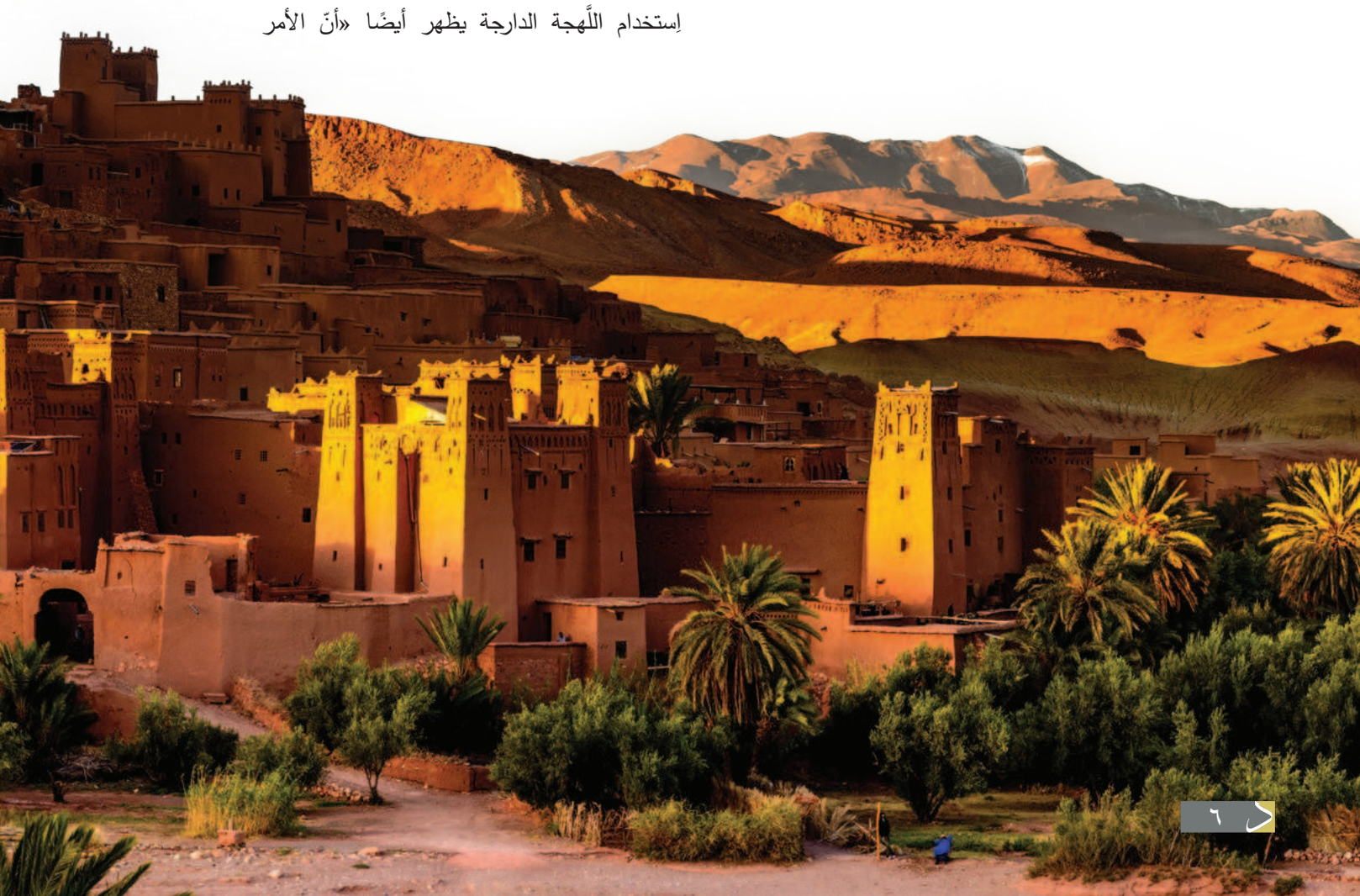

يتعلّق بالمغرب، يتعلّق ببلدنا، بشعبنا، ووطننا».

تتوجّه أغنية «نداء الحسن» بشكلٍ أساسيٍّ إلى اللّعب على ثلاثة أوتار أو مُخاطبة ثلاثة مُستويات ضمنيّة رئيسة: وتر إسلامي – ديني، ووتر الوطنيّة والارتباط بالوطن، ووتر التّحفيز السّياسيّ. وتتداخل هذه المُستويات فِي ما بينها كون الإسلام مرتبط بالسياسة في المغرب ولدى العائلة المالكة باعتبارها سلالة عَلَويّة (نسبة لآل البيت). ويتمّ التأكيد على الارتباط بالأرض وتماسك الشّعب، الّذي يَشمل الصّحراويّين أيضًا في المفهوم المغربيّ، مِن خلال اِستخدام الضّمائر المُناسبة: «فرحي يا أرض بلادي/ أرضك صبحات حرة/ مرادنا لازم يكمل/ بالمسيرة الخضرا/ [...] حاملين كتاب الله/ وطريقنا مستقيم». وبطبيعة الحال فإنّ الملك يتحدّث باسم الصّحراء الغربيّة لأنّه من الجليّ للملحّن والمغنّين أنّ الصّحراء مَوطنهم أيضًا: «صوت الحسن ينادي باسمك يا صحراء». إنّ الهدف الّذي تسعى إليه المَسيرة الخضراء هو الحفاظ على روابط الدم، وهذا واجب إسلاميّ. يصوّر «نداء الحسن» أنّه تمّ لمّ شمل العائلات أخيرًا بعد انتهاء الحكم الاستعماريّ الإسبانيّ:

إنّ قضيّة الصّحراء الغربيّة توحّد حتّى المعارضين مع مؤيّدي الحكومة. هذا ما يبدو جليّاً لدى فرقة (جيل جيلالة) المغربيّة التي اشتهرت منذ فترة طويلة على أنّها مجموعة احتجاجيّة

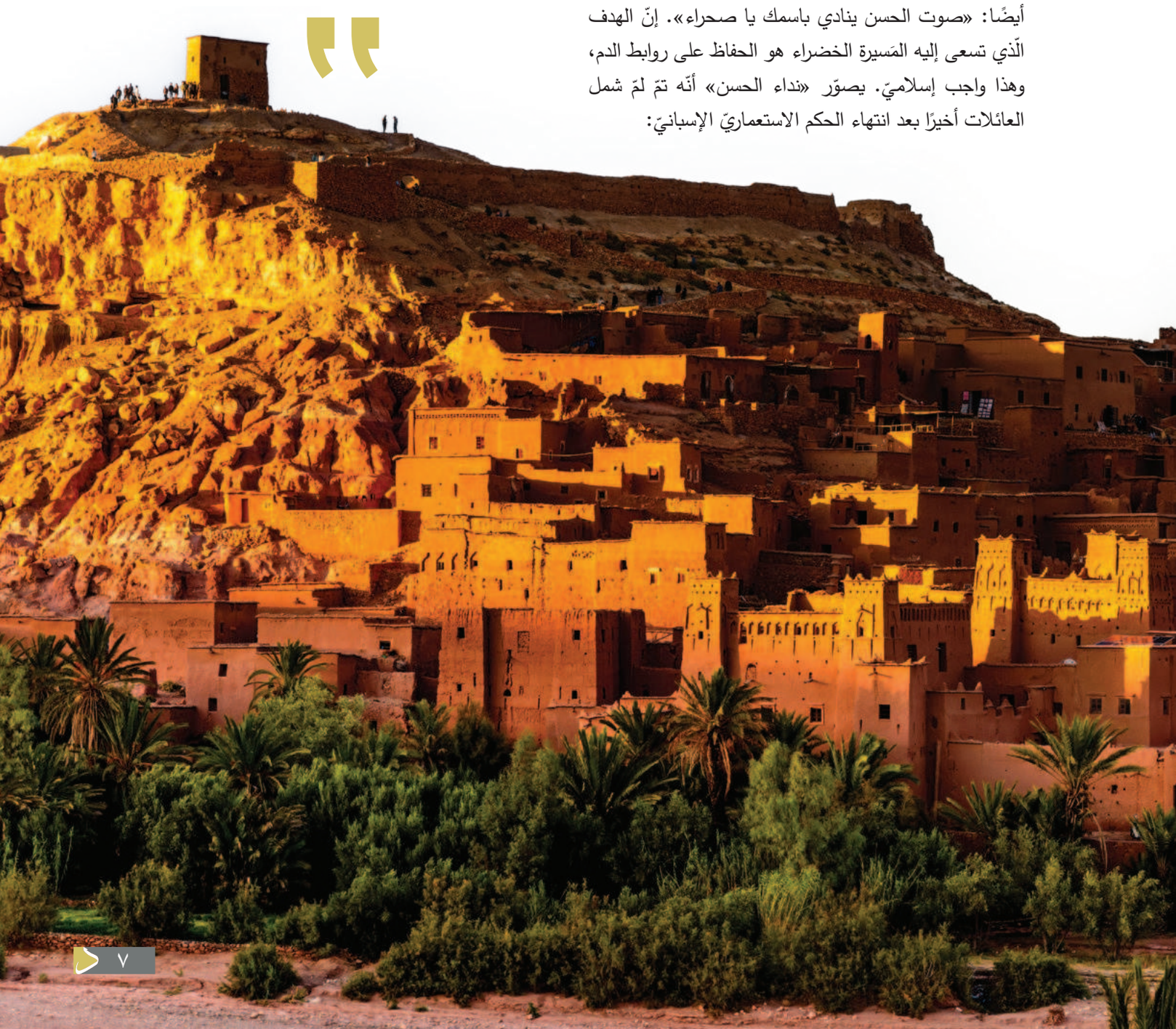

«إخوانا فالصحراء يسألونا الرحم». وتتابع الأغنيّة وتقول أنّ «أبواب الصّحراء مفتوحة»، وهذه إشارة إلى أنّ الصحراويّين سُعداء باستقبال المُشاركين فِي المَسيرة، فيبدو للسامع وكأنّ الهيمنة بالقوّة مُستحيلة فِي هذه البلاغة اللُّغويّة للنصّ، بل على العكس مِن ذلك تبدو المسيرة الخضراء «مُعجزة الزَّمان» الخالية مِن العنف الّتي تُسطّر مَجد الأمّة أو «مَجد الوطن».

أمّا أُغنية «العيون عينيا» فهي تُؤيّد الهدف نفسه، لأغنيّة «نداء الحسن»، إلا أنّها تخاطب بشكلٍ أقلّ الشُّعور القوميّ الجَمعيّ، وتتوجّه بِشكلٍ أكبر إلى العُنصر العَاطفيّ الفرديّ للمستمعِ.

يبدو الأمر وكأنّ المرء يستمعُ إلى أحد المُشاركين فِي المَسيرة فِي سعادته، بأنْ يكونَ جُزءًا مِن إعادة توحيد البلاد. وتبقى المطالب السياسيّة والإشارات الدينيّة واضحة هنا، على سبيل المثال: «وإيماننا يُحطم كل طاغي جبار/ على بلادي يا سيدي وعلى بلادي». ويتكرّر الحقّ في الصحراء في لازمة الأغنيّة: «العيون عينيا/ والساقية الحمرا ليا/ والواد وادي يا سيدي». هنا ولِمُتطلّبات مُوسيقيّة تمّ ذكر السّاقية الحمراء مجازيًا إشارة إلى منطقة السّاقية الحمراء الّتي تُشكّل مَع مَنطقة «ريو دي أورو» أو «وادي الذهب» الجنوبيّة مقاطعة الصحراء الغربيّة. ويُقصد بالعيون مدينة العيون، أكبر مدينة في الإقليم الجنوبيّ. وفي اللازمة يتمّ التوجّه إلى سيّد غير معروف أو مذكور صراحة بالاسم «يا سيدي» بأنّ المناطق وأكبر مدينة في الصحراء الغربيّة هي «لنا». أكثر من مطالبة بهذا الوضوح.

بالنظر إلى اللّغة البلاغيّة في هاتين الأُغنتين تبدو القضيّة جليّة تمامًا بالنسبة إلى العديد من المغاربة الذين لا يعرفون أو لا يؤيّدون أهداف نشطاء الاستقلال الصحراويّين: إنّ أقاليم الدولة المغربيّة تشمل أيضًا منطقة الصحراء (المغربيّة)، والذين يعيشون في هذه المنطقة ينتمون بدورهم إلى الشعب المغربيّ. إلا أنّ الأمر يبدو مختلفًا بالنسبة إلى النشطاء الصحراويّين أو إلى أعضاء جبهة البوليساريو: إنّهم ينادون بدولة مستقلّة في الصحراء الغربيّة للشعب الصحراويّ، ولا يميّزونها عرقيًا وثقافيًا عن المغرب فحسب، بل وطنيًا وقوميًا أيضًا. فالشاعرة الصحراويّة الخضرة مبروك أو حفيدتها المطربة الصحراويّة عزيزة إبراهيم تواجهان فرقة «جيل جيلالة» وعبدالله عصامي، إذ تعتبران الصحراء الغربيّة وليس المغرب وطنهما، الذي من أجله تناضلان بالفنّ من أجل اِستقلاله حتّى يُصبح شعب دولة ذا إقليم دولة وينتفي النزاع مع سُلطة الدولة المغربيّة عليه.

ليس بالضرورة أن تدفع الموسيقى والشّعر بالصراعِ نحو التّصرّف، إلا أنهما يرسيان الهياكل الفكريّة التي رسّختها المَسيرة الخضراء في الذاكرة الجمعيّة للمغاربة ويجعلانها تبدو طبيعيّة. إنّهما الغراء أو الرابط الثّقافيّ الّذي يجمع المغاربة إلى بعضهم البعض. في المقابل يقوم النشطاء الصحراويّون وعناصر جبهة البوليساريو بشحذ وعيهم الوطنيّ في مواجهة «الاحتلال المغربيّ». أمّا عن السؤال حول أيّ مِن الروايات ستسود، فإنّ الأمر يعتمد في النهاية على ميول المجتمع الدوليّ. حتّى ذلك الحين ستتابع نظريّة «جيلينيك» في الصحراء سعيها حرفيًا.

Quelle

Bayān al-Yawm (2020): Fī ḥiṭāb sām bi-munāsabat ad-dikrā l-ḫāmis wa-arbaʿīn li-l-masīra al-ḫaḍrāʾ.http://bayanealyaoume.press.ma

Anfaspress (06.11.2020): Malḥamat „Nidāʾ al-Ḥasan“. Aṣl ḥikāyat an-našīd al-waṭanī t-tānī l-ḫālid. https://anfaspress.com/news/voir

al-Ittiḥād al-Ištirākī (06.11.2009): Al-ʿUyūn ʿAynīyā llatī ʿabbaʿat aš-šaʿb al-maġribī. In: Maghress. https://www.maghress.com/alittihad

Šabbū, Al-Mahdī (09.11.2015): Nidāʾ al-Ḥasan: Usṭūrat uġniya. In: Hespress. https://www.hespress.com

Quellen Liedtexte:

Nidāʾ al-Ḥasan:
Anfaspress (06.11.2020): Malḥamat „Nidāʾ al-Ḥasan“. Aṣl ḥikāyat an-našīd al-waṭanī t-tānī l-ḫālid. https://anfaspress.com/news/voir al-ʿUyūn ʿAynīyā:
Burkāt, ʿAbd al-ʿĀlī (12.11.2019): Aġānī l-masīra l-ḫaḍrāʾ tušakkilu ġuzʿan min dākiratina t-taqāfīya. In: Bayān al-Yawm. http://bayanealyao-ume.press.ma

ميلينا أبو الفلاح

كاتبة وصحفية ألمانيّة،

درست العلوم السياسيّة والعلوم الإسلاميّة في جامعة مونستر، وتحمل ماجستير في الدراسات الشرقيّة والآسيويّة، بتخصّص اللّغة العربيّة والتّرجمة مِن جامعة بون الألمانيّة. محور اختصاصها مسألة الصحراء الغربيّة/ المغربيّة، والنزاع حولها. وقد عاشت فترة من حياتها في المغرب وتتقن اللّغة المغربيّة المحكية. وتعمل حاليًا صحفيّة في برلين.

تَجلّياتُ الوطن فِي الشّعر الغِنائيّ السُّودانيّ

دة. إشْراقة مُصطفى حامد *

يُعتبر السُّودان من أكبر الدُّول فِي القارة الأفريقيّة مِن حيث المِساحة قبل اِنفصال جنوب السُّودان. والسودان دولة تمتلك حضارة عريقة تعود إلى الممالك القديمة مثل: كرمة، كوش، وعلوة، والّتي تعود لأكثر مِن خَمسةِ قرون.

يتمتّع السُّودان بموقعٍ جغرافيٍّ استراتيجيٍّ فِي شمال شرق أفريقيا، حيث يحدّهُ مِنَ الشِّمال جمهوريّة مصر العربيّة، ومن الشمال الغربي جمهورية ليبيا العربيّة، ومن الغرب تشاد، ومن الجنوب الغربيّ جمهوريّة أفريقيا الوسطى، ومن الجنوب جنوب السّودان، ومن الجنوب الشرقي أثيوبية، ومن الشرق إريتريا، ومن الشمال الشرقي البحر الأحمر. حصل السُّودان على استقلاله مِن الاستعمار البريطانيّ فِي عام ١٩٥٦م، وعلى الرغم من الثروة الطبيعية والحيوانية والمعدنية في السودان، ووجود أطول نهر في العالم على أراضيه، إضافة إلى إلتقاء النيل الأبيض والأزرق في العاصمة السودانية الخرطوم، وتواجده على البحر الأحمر في الشرق، إلاّ أنّه لم ينعم بالاستقرار منذ الاستقلال.

يعودُ تاريخُ الأدبُ السُّودانيّ إلى ما يزيد على ٧٠٠ سنة قبل الميلاد، متمثّلاً فِي الكتابة المَرويّة –نسبة لحضارة مَرويّ السُّودانيّة القديمة، قِدمَ التَّاريخ– والكثير مِن التّاريخ الأدبيّ الشَّفَويّ، والمَكتوب بِلغةٍ عربيّة ساميّة، ولغاتٍ أفريقيّة قديمة، هناك بعض الأبحاث التي تشير إلى أن بدايات تشكّل الأساطير المصريّة كانت توجد في هذه المنطقة أيضاً. في كتاب «طبقات ود ضيف الله»، يتناول الكاتب مُحمّد نُور ود ضيف الله، الأحاجي، والأساطير التي تم تداول بعضها كتابةً مثل كتاب «الأحاجي السُّودانيّة»، والّتي جمعها العلامة اللُّغويّ، والمُفسر المُجدد البرفسور عبد الله الطّيب عليه رحمة الله.

كما يمكن الإشارة للأدب الحديث بدءًا مِن مَطلع القرن التاسع عشر، كذلك كتبتْ أول سودانيّة روايتها في بداية الأربعينيّات من القرن العشرين وتُعتبر من أُولى الروايات النّسوية التي كُتبت في المنطقة العربية، وهي

رواية الأديبة المرحومة، ملكة الدّار محمّد عبد الله، وكانت بعنوان: «الفراغ العريض»، والّتي نُشرت بعد موت الكاتبة في بداية السّبعينات. وربما لا يمكن قراءة المشهد الأدبيّ بعيدًا عن تعقيدات الواقع الّذي أنتجه، ودور الثّقافة العربيّة. احتشدت السّاحة الثّقافيّة السُّودانيّة بضروبٍ مُختلفة مِن الإبداع، الّتي مِن الصّعب إدراجها في هذه المساحة. ويأتي الترتيب بشكل تلقائي دون إعتماد التسلسل الزّمنيّ. مِن المُهم الإشارة إلى أنّ المشهد الأدبيّ تطوّر كثيرًا وظهرت أسماء مؤثرة في الحِراك الأدبيّ والثّقافيّ ومن الصّعب حَصرها في هذه السّانحة الضّيقة. أصوات مُواكبة لما يحدث مِن تحوّلات في الواقع السُّودانيّ. تجدر الإشارة إلى أنّ ضروب الإبداع تتشابك في حالة العديد مِن الكاتبات والكُتاب.

سوف أتناول فِي هذه السّانحة تجليات الوطن في الشّعر الغنائيّ وسأذكر نماذج مِنه، لأنّه مِن الصّعب التّوثيق لكلّ الشّعر الغنائيّ الّذي تَجلّى فيه الوطن صادحًا بأشواقِ وأحلامِ شُعرائهِ وشاعراتهِ وتصوّراتهم المُتخيَّلة عن الوطنِ المُرتجى وشحذ الوجدان لكي يظل الوطن مُتّقدًا، يُشرّع فضاءاته للأجيال القادمة جيلًا بعد جيل. الشّعرُ هو روح الوطن في زمنِ الاستعمار في السّودان، إذ ظلّت الشّاعرات والشّعراء صوتًا عاليًا ينبع مِن جوف البلاد ليبقى الوطن ملاذًا لكلِّ السُّودانيين والسُّودانيات. وإنَّ قِرَاءَتْي لبِعض الشّعر الغنائيّ وتجلّيات الوطن فيها لا تعني سوى تأويلاتي وتشكيل فكرة الوطن والصّور الذّهنيّة الّتي نُكوّنها عنه مُنذ رحلة الإستكشاف الأولى، والّتي تتضح معالمها كُلّما اِبتعدنا جغرافيًا عن الأرض. مُنذ دندن الشّعب السُّودانيّ (اليوم نرفعُ راية اِستقلالنا)، الّتي كتبها الشّاعر عُثمان عبد الرحيم، وتم تقديمها ككورال من قبل جامعة الخرطوم في عام ١٩٦٠م، ولاحقًا قام الفنان محمد وردي بأدائها. *اليوم نرفع راية استقلالنا،

ويسطر التاريخ مولد شعبنا،

غنوا لنا غنوا لنا،

يا نيلنا

يا أرضنا الخضراء يا حقل السنا

يا مهد أجدادي ويا كنزي العزيز المقتنى

يا إخوتي غنوا لنا اليوم

يعودُ تاريخُ الأدبُ السُّودانيّ إلى ما يزيد على ٧٠٠ سنة قبل الميلاد، متمثّلاً فِي الكتابة المَرويّة، والكثير مِن التّاريخ الأدبيّ الشّفَويّ، والمَكتوب بلغةٍ عربيّة ساميّة، ولغاتٍ أفريقيّة قديمة

فِي جبال النّوبة بِلغةِ النّيمانغز، حاربتْ الأميرة مَندي المُستمِعر البريطانيّ، لأجل إستقلال بلادها، رغُم أنَّ ذلك لم يُدوّن فِي التَّاريخ الرَّسميّ

كـرري ..

كرري تـحدث عن رجال كالأسود الضارية،

خاضوا اللهيب وشتتوا كتل الغزاة الباغية،

والنهر يطفح بالضحايا بالدماء القانية،

ما لان فرسان لنا بل فر جمع الطاغية،

يـا إخوتي غنوا لنا اليوم

وليذكر التأريخ أبطالا لنا،

عبد اللطيف وصحبه،

غرسوا النواة الطاهرة،

ونفوسهم فاضت حماسا كالبحار الزاخرة،

من أجلنا ارتادوا المنون،

ولمثل هذا اليوم كانوا يعملوا».

يبدو لي أنّ طُوب الأرض حَفظ هذه الأُغنيةِ وَظلتْ مُحرضة للتأملِ حول مَاهية إستقلال الوطن، ظلتْ صُورة ذهنيّة تتلألأ كُلما صَدح حسن خليفة العطبراويّ: (أنا سُودانيّ أنا) تأكيدًا عَلى (السُّودانويّة)، الوطن الّذي يسع الجميع بِكل تنوعهم الإثني والدّينيّ والنّوعيّ.. إلخ. (أنا سُودانيّ أنا) تكرار هذه الأنا، هذه الذّات (السُّودانويّة) الّتي تُعبرُ عَن كلّ التّنوع وتديره بإقتدار كمدخل لسلامٍ دائمٍ يعم كلّ أرجاء السُّودان. المَدخل لِبلورة هذه (السّودانويّة)، تجلَّى فِي قصيدة (العودة إلى سِنار) للشاعرِ الدُّكتور مُحمّد عبد الحي عليه الرّحمة باللّغةِ العربيّة الفُصحى، إذ أن إنتماءه لِمدرسةِ الغابة والصّحراء إنعكس فِي تبنّيه لأهم قضية شغلت الوطن وهي قضية الهويّة الّتي تسببت فِي الكثير مِن الحروب والصّراعات رغم أنّ ثراء هذا الوطن فِي تنوعه الجميل والّذي تَكمن مُشكلته فِي إدارة هذا التّنوع.

تفننت المرأة السُّودانيّة فِي فداءِ الوطن والغناء لأجلهِ مُنذ فجر التّاريخ وإنعكستْ فِي (أول مارشال عَسكريّ) للأميرة (مَندي بِنتْ السُّلطان عجبنا)، فِي جبال النّوبة بِلغةِ «النّيمانغز»، إذ حاربتْ الأميرة مَندي المُستمِعر البريطانيّ، لأجل إستقلال بلادها، رغُم أنَّ ذلك لم يُدوّن فِي التَّاريخ الرَّسميّ، وهذا المَارشال مُحفِّز للبحثِ عن الوطن فِي كُنوزِ اللُّغاتِ السُّودانيّة الأخرى. تداعى الوطن سَلسًا فِي أشعارِ (مَهيرة بنت عبود) وهي تُنشد شعر الحمَاسة وتلهم الجنود السّودانيين لأجلِ حُرية البلاد. كما تغنتْ الفنانة الرائدة (عائشة الفلاتية) والشاعرة نجاة عثمان (حَ يِجي الزمن الفلاني) والتّي تغنى بها الراحل المقيم مصطفى سيّد أحمد. ومِن الجيل الجديد الفنانة نانسي عَجاج وهي تدندن بأغنية (بلدا هيلي انا) للشاعر طارق الأمين:

«بلدًا هيلي نا

بلداً هيلي نا

دموعها.. دموعي نا

أساها.. أساي أنا

ضميرها..ضميري نا

كل آمالي نا

السلام يملاها.. يطلع من هنا

والحَمَام يتشابى

تقدل طفلة حلوة و بين إيديها كتابا

والحبوبة تمسح بالحنين أثوابا

والقمرية تصدح.. تستريح دبابة».

هي بلادنا، بلاد أهلنا، كلما توجعت توجّعت أبدان ساكنيها، حزنوا لحزنها، وضميرها ضمير شعبها. الأغنية التي سوّقت للسلام العادل الذي لن يتحقق دون أن تقف الحروب ودون التعليم (تقدل طفلة حلوة وبين إيديها كتابها)، تعليم البنات والجدة (الحبوبة) يسكن الحنين حكاويها للأحفاد .. حكاية وطن عاشت فيه ونبض في قلبها.

الأغنية التي تغنّى بها سيد خليفة والتي ملأ بها الأصقاع السودانية تعبّر عن حب الوطن وشوق السودانيين لها، وتعكس قيمة الانتماء والولاء للوطن. يرددها السودانيون والسودانيات أينما حلوا وفي غدوهم وترحالهم وفي مهاجرهم البعيدة والقريبة، هذه الأغنية الخالدة هي تجسيد لروح الوطن وتعبير عن الغربة والشوق للوطن الذي يتجلى بشكل أكبر في غيابهم. وهي من كلمات الشاعر السوداني إبراهيم عبد الله رجب:

«يا وطني يا بلد أحبابي فى وجودي أحبك وغيابي

يا الخرطوم يا العندى جمالك .. جنة رضوان

طوول عمرى ما شفت مثالك

في أي مكان

أنا هنا شبيت يا وطني

يا وطني يا بلد أحبابي في وجودي أحبك وغيابي

يا الخرطوم يا العندى جمالك .. جنة رضوان

طوول عمرى ما شفت مثالك

في أي مكان

أنا هنا شبيت يا وطني

زيك ما لقيت يا وطني

في وجودي أحبك وغيابي

على ليالي زمان

وقلبي عايش لغرامك ما بعد غرام

كانت أيام يا وطني

زى الأحلام يا وطني

بتذكر فيك عهد صبايا

على شاطئ النيل

حبيبي جالس حدايا

أسمر وجميل

أنا بفخر بيك يا وطني

بالروح أفديك يا وطني».

ولعله أكثر مَن أنشد للوطن مِن الشُّعراء محجوب شريف، ومحمد الحسن سالم، والشاعر محمد طه القدال، وتغنى بكلماتهم عدد مِن الفنانين والفرق الموسيقيّة، أذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الفنان مصطفى سيد أحمد عليه الرحمة، وفرقة عقد الجلاد. في كثير من قصائدهم كان الوطن نورًا، وهو وطنٌ يتجسّدُ فِي المرأة، وهذا ليس غريبًا. فقد استخدموا عبارات مثل (عزة في هواك) و(يا أم ضفائر قودي الرسن وأهتفي فليحيا الوطن) ليشيدوا بدور المرأة في سبيل وطنها . وقد أشاد محمد وردي في قصائده بالوطن، ومن بينها أشعار مأخوذة من أعمال محجوب شريف، كما يلي:

«حنبنيهو

البنحلم بيهو يوماتى

وطن شامخ وطن عاتى

وطن خيّر ديمقراطى

وطن مالك زمام أمرو

ومتوهج لهب جمرو

في كثير من قصائدهم كان الوطن نورًا، وطنٌ يتجسّدُ فِي المرأة

"الأمل الأزلي بتحريض عصافير الرّوح لتصدح (شان عيون أطفالنا ما تضوق الهزيمة)، قد آن الأوان أن يجني صِغارنا حَصاد كلّ مَن تغنى للوطن، حيث نعمة سلامة البيئة، والسلام، والتنمية المُستدامة."

وطن غالى

نجومو تلالى فى العالى

إراده سياده حريّه

مكان الفرد تتقدم..

قيادتنا الجماعيّه

مكان السجنِ مستشفى

مكان المنفى كليّه

مكان الأسري ورديّه

مكان الحسره أغنيّه

مكان الطلقه عصفوره

تحلق حول نافوره

تمازج شُفّع الروضه

حنبنيهو

البنحلم بيهو يوماتى».

هذا الحلم الوطني العظيم الّذي تغنّى بهِ جموع السّودانيين، نساءً ورجالاً، شيبًا وشبابًا، تجسد في أغنية أبدع الشاعر محجوب شريف في سبكِ مَعانيها فكانت ذهبًا يتلألأ في سماء الوطن، تشحذ همم السّودانيين وتحثهم على الأمل لتغيير واقعهم. الأغنية التي أكدت على ضرورة الحرية والسلام كشرطين أساسيين لتحقيق التنمية المستدامة (تعليم وصحة ورفاهية)، وظل السلام سدرة الشاعر محجوب شريف متغنيًا لوطنه المُتحد، وظلت شخصية «ميري» التي حدثتنا عبر قصيدة أخرى له، عن ضرورة السلام وإنفصال جنوب السّودان، وبقيت قصائده تُذكّرنا بِضرورة الاتحاد والوحدة.

كما تغنى أيضًا مصطفى سيد أحمد بقصيدةٍ للشاعر قاسم أبو زيد (مطارات الوداع):

«سافر محطات الوداع

ضجت قدامك ووراك

بلقاك سماك غناي

مساحات الاسى الفي عيونا

تتفجر مدينة وناي

بطاقات دعوة الرجعة

تساب عينين من الفرحة

ودموع للحاضرين اتفجت

وعاد فرح الرجوع منية».

حَملَ السّودانيون والسودانيات الوطن (شامة على القلبِ)، تضجُ المطارات بالوداع ويضجُ القلبُ بالحنينِ والأمكنة على مدى الكون بالسودان، ونسيم النيل، وروائح النخيل، والباباي، والتبلدي، تفوحُ روائح البهارات السودانية، والريح أجنحة تهفهفُ بالأغنياتِ السودانية، الأغنيات للوطن. هذا الحنين وحالة اللافكاك عبرتْ عنه قصيدة للشاعر عبد القادر الكتيابيّ، والّتي تَغنى بها أيضًا الفنان مُصطفى سيّد أحمد:

«على بابك

على بابك نهارات الصبر .. واقفات

بداية الدنيا هن واقفات

وكم ولهان وكم طائر

بعد نتّف جناحو وراك

لملم حر ندامتو .. وفات

قطع شامة هواك من قلبو

إلاّ هواك نبت تانى

وعلى بابك وقف تانى

غمايم شاقة حضن الليل

مسافر فيها وحدانى .. وبدون جنحين

يغنيك الهنا .. المافى

ويغنيلك رهافة حِسو

يفنى على جليد آمال

ويحلم بالشتا الدافى

وقدر ما يمشى في سور الزمن خطوات

يلاقى خطى السنين واقفات

يلاقى هواك نبت تانى

وعلى بابك وقف تانى

وملا الساحات».

ويقف الشَّاعر عبد القادر الكتيبابيّ بنا جميعًا أمام بوابة الوطن العتيقة، نقفُ بِخشوعٍ على بابهِ، ومَهما (ضجت مطارات الوداع)، فلن ينزع ذلك (شآمة هوى القلب)، لبلدٍ حُلم شَاعراته، وشعرائه، ومغنيه، ومغنياته، بأن يلتقي النيل الأبيض والأزرق في قلب النيل، ليصب فِي وجدان كل سوداني. أشعار أكدت أنّ السودان جديرة كوطن بالحياة الكريمة والرّخاء، والسّلام العادل لكلِّ مواطنيه.

ولا يعني هذا أنه ليس هناك أشعارًا حرضت على الحروب، وأنهار الدِّماء، وهذا لعب دوره في صرخة الوطن الداوية: «هلموا.. لنبني البنحلم بيهو يوماتي وطن شامخ وطن عاتي وطن خير ديمقراطي».

مِن الصَّعب الكتابة عن هذه التجليات في صفحات بسيطة فهذا يحتاج إلى مُجلدات، وقراءة للتاريخ البعيد وسبر أغواره، ليخرج لؤلؤ الخالدين، والخالدات، في سيرة الوطن، ومسيرته، الوطن بهجة، ومَسرات الروح في البحث عن أمانها وسكينتها.

وتظل القصائد نابضة بالآمال العريضة، على اِمتداد السُّودان تصدحُ فرقة «عقد الجلاد»، التي تغنتْ كثيرًا للشاعر الراحل المُقيم، مُحمّد طه القدال:

«وشفتي كيف يوم الوعد كيفنو مترامي الغمام

والقمري زغرد للبلوم النسمه هبت مرتين

يا حليوه يوم دقيت بارضك فاس خصيب

والتانيه في يوم الوعد والايد تسالم في الايدين

والام تقالد فوق جناها تشمو زين

وحليوه صاحيه حليوة ضاحيه كذا النسيم

والدنيا غيم وحليوة جد جد ياولد قول للبلد

قايل غناوي الحزن ليش شايل مساديرك مجامر دمع ليش

ليش يا بلد والناس تريد والدنيا كل ما نريد تزيد

تملا الايدين تفرح تهش

لو صحيح غنينا بالدمعه الحميمه ولو دموع الفرحه ما لاقت غنانا

بكره نرجع تاني للكلمه الرحيمه شان هنانا شان منانا

شان عيون اطفالنا ما تضوق الهزيمه».

الأمل الأزلي بتحريض عصافير الرّوح لتصدح (شان عيون أطفالنا ما تضوق الهزيمة)، قد آن الأوان أن يجني صِغارنا حَصاد كلّ مَن تغنى للوطن، حيث نعمة سلامة البيئة، والسلام، والتنمية المُستدامة.

دة. إشْراقة مُصطفى حامد

كاتبة وباحثة وإعلامية سودانية- نمساوية.

تعيش وتعمل بالعاصمة النمساوية فيينا. درست الصحافة والإعلام بالسودان، ونالت درجة الماجستير في الإعلام، وعلوم الاتصال بجامعة فيينا، والدكتوراة في العلوم السياسية، حيث عملت كمحاضرة غير متفرغة بمعهد العلوم السياسية بجامعة فيينا. صدرت لها تسعة كتب بالعربية والألمانية. ترجمت أيضًا تسعة كتب أربعة منها، بالتعاون مع كُتَّاب نمساويين. نالت العديد من الجوائز مثل جائزة المرأة الفاعلة، سفيرة فوق العادة للثقافة بالمجان لمؤسسة ناجي نعمان الأدبية بلبنان، وكذلك حصلت على الكثير من الجوائز، بما فيها «الميدالية الذهبية» كأعلى ميدالية تمنحها حكومة العاصمة النمساوية فيينا.

أن تقبض على روح المدينة متلبسة، تجربة (السايكو-جيوغرافي)، في تفكيك طريقة إحساس المرء بالمكان كتجربة شخصية

ندى حطيط *

"يمكنك أن تصاب بالجنون في محاولة للكتابة عن مدينة".

دواير ميرفي، روائي أمريكيّ.

أن تحاول كروائيّ أو كاتب مُذكّرات إتخاذ مدينة ما موضوعًا، فتقبض على روحها لتبني نصوصك حولها وفي أجوائها المكانيّة، لتبدو بالفعل مَهمّة مُحيّرة حدَّ الإستحالة. فَعن ماذا ستكتب:

عن المدينة التي كنت تعرفها صغيرًا، شوارعها التي تغيَّرتْ ومَحلاتها التي اختفت ومقاهيها التي لم تعد قائمة، إذ لم تعد مدينتك حينها تشبه الحالية في شيء؟ أو عن المدينة التي سيعثر عليها الزوار غدًا إن جاؤوا سائحين، حيث الشّوارع العريضة والمباني الكبيرة والمطاعم الشّهيرة والأضواء، أم تلك المُختفية فِي الشّوارع الجانبيّة حيث دور "السينما" الصغيرة، والمطاعم الشعبيّة التي تعمل على مدار ٢٤ ساعة، ومكتبات الكتب المستعملة، وأكشاك الصحف، والحانات وعُلب الليل التي لا يصل إليها إلا أصحاب المنطقة؟

إنّ أيّ نصّ أدبيّ حول التّجربة الشخصيّة للمكان سيأخذ دون شكّ ما لا يقل عن العامين؛ ما بين إكتماله، ووصول الكتاب المطبوع ليد القارئ، وسرعان ما سيجد المرء كثيرًا مِن المواقع الّتي سجّلها قد تسرّبت من اليدين مُجددًا: واجهة ذلك المَتجر قد تغيرت، وما كان فرنًا للكعك أصبح فرعًا لبنك، ومقر الحزب صار متجرًا لبيع الدّواجن، فكأن المدينة سيّدة تغيّر ثيابها بين كلّ عُطلة نهاية أسبوع وأخرى. ثم هل المدينة أماكن أم أشخاص، تجارب أم أصوات، هدوء أم صخب وضوضاء، روائح أم حكايات، صُحف أم سيارات أجرة، محطات قطار أم كورنيش ميناء، جامعة عتيقة أو حي دبلوماسيّ، إشارات المرور أم مَقاعد الإنتظار، المُستشفيات أم حدائق الأحياء، المقابر أم الأرصفة وكتابات الجدران؟ وماذا عن الجرائم الشّهيرة، والسّرقات الكبرى، وأماكن المقابر الجماعيّة، والحواجز وخطوط التّماس– إن كنت مثلي مِن مدينة شهدت حروبًا أهليّة؟ وماذا عن الطقس والمطر، الضوء ودرجة الحرارة؟ والأسماء؟ هل نحتاج إلى سجل رسميّ لتسميات الأماكن والأجواء بلهجة سكانها أم نطلق عليها أسماء خياليّة من عفو الخاطر؟ ولعل السّؤال الأهم يظل ذائقة الكاتب ذاته. فهل هو يكتب عن مدينته من وحي العيش المباشر واللّحظيّ فيها، أم كتجربة نوستالجيا لاستعادة ماضٍ قبل الغربة القسرية. وهل يكتبها كحبيبة أولى،

أم هو يقارنها بأخريات عرفهّن في غربته وترحاله: أن تكتب عن بيروت بعدما غرقت في حياة باريس أو لندن مثلاً، ليس أبدًا كأن تكتب عن بيروت وأنت أقصى رحلة خارجها أخذتك نحو صيدا – كيلوميترات قليلة نحو الجنوب – وهل يكتب الرجال عن مدنهم، كما قد ترسمها النساء؟ وهل يرى مهاجر خاسر حزين مدينته كمن تركها سعيدًا هنيئًا بحثًا عن أيّام أفضل؟

فإذن من أين نبدأ؟

لقد مدّنا الأدب الأوروبيّ المُعاصر بِتجربةٍ مُثيرةٍ للاهتمام في البحث عن روح المدينة مِن خلال تأثيراتها النَّفسيّة على الأفراد، وهي لذلك اِستعارت اِسمها "سايكو– جيوغرافي" أو (الجغرافية النفسيّة)، وهو مصطلح مِن مساحة التقاطع الخلّاق بين التّحليل النفسي، وجغرافيا البيئات الحضريّة.

وتقوم نظريّة "السايكو– جيوغرافي"، بشكلها الفضفاض على اختبار المشاعر، والعواطف الذاتيّة من خلال التجوّل مشيًا عبر الأماكن المختلفة، وفق طُرق مُبتكرة، ومتمردة على السائد وربّما بلا خطّة (drift)، ومِن ثمّ إطلاق العنان للحواس لتسجيل التجربة المميزة لتذوّق عين المكان. وكثيرًا ما تُنتج هذه الجولات إحساسات يُسجّلها البعض وفق أدواتهم الذاتية للتعبير: من مثل كتابة وصفيّة، أو نحتًا روائيًا أو رسومًا "اِسكتشيّة" أو حتّى مُسوحًا مِعماريّة مدعومة بالصور والقياسات، أو أفلامًا وثائقيّة.

وعلى الرّغم من أنّ الاعتراف بمصطلح "سايكو– جيوغرافي"، كان بقلم المُنظر الماركسيّ الفرنسيّ "غاي ديبورد" في العام ١٩٥٥م، فإن هنالك ما يشبه الإجماع على أنّ الفكرة مُستوحاة مِن مَفهوم للشاعر والكاتب الفرنسي "تشارلز بودلير" في القرن التاسع عشر عن "الفلانور" – ما يعادل المتجوّل الحضريّ لأجل التجوّل – وقد أصبح الأمر لاحقًا موضع تجارب للعديد من المعماريين، والفنانيين، والثوريين، والروائيين، في محاولاتهم المتباينة الدّوافع، للقبض على جوانب من روح مُدنهم وأحيائهم، التي لا يمكن العثور عليها في الكتيبات السياحيّة أو السجلات الرسميّة. وغالبًا ما تكون المواد التّسجيليّة الّتي يرجع بها هؤلاء من جولاتهم "السيكو– جيوغرافيّة"، غنيّة فكأنها سِجل تاريخيّ حقيقيّ للمكان في برهة مُحددة من الزّمان.

تأثرت مُمارسة "السايكو– جيوغرافي"، بجذورها المُتمردة والغامضة الّتي بدأت مِن تفاعلات ساحرة بين ثوريين ماركسيين، و"أناركيين" فوضويين، مع فنانين، وشعراء "دادائيين وسوريياليين" –حيث شكلوا لاحقًا بعد مؤتمر لهم في إيطاليا عام ١٩٥٧م، ما صار يُعرف بالأممية التموضعيّة (Situationist Intertional)، التي حلّت رسميًا في ١٩٧٢م– ولذلك طالما

وهل يكتب الرجال عن مدنهم، كما قد ترسمها النساء؟ وهل يرى مهاجر خاسر حزين مدينته كمن تركها سعيداً هنيئاً بحثاً عن أيّام أفضل؟

انحازت ممارستها إلى نوع من المرح العابث، وممارسة تحدٍ للسائد، وكسر للحاجز بين الثقافة النّخبويّة والحياة اليومية من خلال فعل الضّياع غير المبرمج والتيه مشيًا في قطاع معيّن من المدينة. وعدو هذه التجربة دائمًا هو السير الهادف الذي يرتبط بجدول أعمال مُسبّق لأن ذلك –وفق "السيكوجيوغرافيين"– يُسقط من الإحساس جوانب هامّة من الطريقة التي نختبر بها كَبشر العالم الحضري.

الروائي كفلانور (Flaneur)

خَمُلَ ذِكْرُ "السايكو– جيوغرافي"، بعد غياب الأمّميّة التَّموضعيّة وتفرّق نجومها، لا سيّما بعد هزيمة ثورة الطلاّب في فرنسا (١٩٦٨) ، واسترداد اليمين زمام المبادرة الثقافيّة هناك. على أن الإمكانات المُغريّة لأسلوب الغوص في قلب المناطق الحضريّة، وقراءة المدينة، في مستوى لا تلتقطه التجارب المَشهديّة الطابع، الّتي يقوم عليها نموذج الاستهلاك السياحيّ للمكان، منح "السايكو–جيوغرافي"، حياة جديدة بداية من عقد التسعينيات، وتقاطرَ كُتَّاب، وفنانون، وصانعوا أفلام، بل ومحرضون ثوريون، لِاستعادة الفكرة مجددًا أساسًا كأداة لاختبار روح الأمكنة.

ولعّل أبرز التّجارب على الإطلاق في إطار هذه الاستعادة "للسايكو– جيوغرافي"، أتت من الأديب والروائي البريطانيّ إيان سنكلير (مواليد ١٩٤٣)، الّذي دبّج مجموعة هامة من الأعمال المُستقاة من جولات "سايكو–جيوغرافيّة" في أجزاء مُختلفة من مدينة لندن أصبحت تعدّ مداخل لا بدّ منها لاستيعاب روح هذه

المدينة العريقة، والثريّة الثقافة، ما وراء نسق الترويج التجاري المُعتاد الذي يستهلكه ملايين السياح الأجانب دون لمس روح المدينة الحقيقية. ويبدو النصّ لدى الكاتب "لويس سنكلير"، متينًا ليس بفضل قوّة موهبة النثر حصرًا، وإنما لاستمداده مادة نثره من تجربة تعايش حقيقي مع المكان، فتتحوّل الصّور الحضريّة في يديه إلى لوحات شعريّة أكثر سحرًا مِن الخيال. إنَّها وفق النّاقد "مايكل هوفمان" أشبه بإعادة بناء كليّة للحيّز الحضريّ مِن خلال اللُّغة.

عند "سنكلير"، فإنَّ مَسيرتهُ "سايكو–جيوغرافيّاً"، أقرب لِمُمَارسةٍ طُقوسيّةٍ تطهريّةٍ مِن وعثاء الحداثة، ووسيلة للتصدي للمنظومةِ الميكانيكيّة، الّتي تَضغطُ على اِستمراريّة الإحساس الفردي بـ "الزّمكان"، وفعل تمرّد ضد العالم المُعاصر، وطريقة إنتاجه للفضاء العام. ومن الجليّ أنّ كتاباته استدعت اهتمام كُتَّاب، وروائيين، ومدونين آخرين من أرجاء العالم "الإنجلو–ساكسوني"، وأضاف هؤلاء من تجاربهم "السايكو–جيوغرافيّة" في نيويورك، ولوس أنجليس، ونيو أورليانز، ومومباي، وسيدني، وغيرها أبعادًا مُثيرة للاهتمام لعمليّة صياغة النّصّ الرّوائيّ عن المُدن، والبعد الذاتي للعلاقة بالأماكن. ولا تقتصر تلك التّجارب على خوض غمار المدينة بحثًا عن جوانبها السريّة المُستغلقة على المنشغلين فحسب، بل وأصبحت بمثابة وصفة لاستعادة (سحر) أماكن وأجزاء من البيئة الحضريّة يتمّ تجاهلها أو لا تخضع في العادة للاهتمام، ومختبر لقراءة العلاقات العاطفيّة اللاعقلانيّة والأسطوريّة التي تربط بين مواقع أو مبانٍ مهجورة وسكان المدينة. كما أنّ ممارسة "السايكو–جيوغرافي" قد تكون مؤثرة بشكل خاص في مواضع شهدت خبرات جرائم أو مُعاناة بشريّة قد لا تعني السياح أو نسيها السكان المحليون مع تعاقب السنين، فكأنها حينئذ تأريخ جديد، وكسر لطغيان خلل الذاكرة الجمعيّة الانتقائيّة لا سيّما في مُدن واجهت صدمات كبرى كبرلين مثلاً، وأداة نقديّة لاستجواب شقوق التاريخ.

إنّ العمل الرّوائيّ الّذي يتخذ من مدينة ما موضوعًا له لا شكّ سيكتسب عمقًا، وثراءً، وقدرةً، على الكشف إنْ هو اِستند إلى مادة "سايكو–جيوغرافية"، فجعل غير المرئي مُتجسّدًا في نصّ مُستوحى مِن تجربة تمرد وانجراف ولقاءات صدفة مع واقع الأشياء فِي منطقة التقاطع بين الأمكنة والأزمنة لهو فعل سياسيّ عالي النبرة، وخطاب مستلّ من تجارب عيش بشري تمنح الرّواية سلطة أدبيّة عُليا.

ومع سيطرة النّموذج "النيو– ليبرالي" على معمار مدننا المعاصرة، وغلبة غابات الخرسانة، والصلب، والزجاج على الأُفق الحضريّ لمعظمها، وتسارع اِندثار الأجزاء ذات الطّابع الحميميّ، والثّقافيّ فيها لِمصلحةِ الحيّزات المُعقمة والباردة، فإنّ الكتابة الرّوائيّة عَن المكان، وعلاقتنا فيه كأفراد بالاستفادةِ مِن مَنهج "السيكو– جيوغرافي" تبدو لذلك مَسألة أكثر إلحاحًا مِن أيّ وقتٍ مضى، أقلّه كذاكرة شعبيّة لحفظ تاريخ يُراد له ألا يكون تاريخًا. إنّ مُدننا تتحرك مِن تحت أقدامنا، وتتقلَّب هُوياتها قبل أن نمتلك ترف الوقت لاستيعابها، ولذا فإنني أزعم بأنّ الرّوائيّ (الفلانور) سيكون "شامان" قبائلنا في هذا العصر.

ندى حطيط

إعلاميّة، وكاتبة، وصانعة أفلام وثائقية.

وهي لبنانيّة– بريطانية الجنسيّة. حائزة على دبلوم دراسات عليا في الإخراج المسرحيّ (كلية الفنون– لبنان) وإجازة في الصّحافة (كلية الإعلام– لبنان)، وماجستير بدرجة شرف في صناعة الأفلام الوثائقيّة (جامعة كينغستون – لندن). لها ديوان شعر منشور ٢٠١٩ (لا مدينة تلبسني)، وكتاب مطبوع ٢٠٢١ (بماذا يفكر العالم). وكتاب جماعي صدر حديثًا ٢٠٢٢ (الرّسائل اللُّبنانيّة: قرنٌ مِن القلق بين الانتداب والتّحرير).

الوطنُ بين الدُّنيا والآخِرة

هنيبعل كرم– لبنان *

"الوطن"، مفهوم مُتعدّد الأبعاد؛ يتحدّد فِي علم الاجتماع الحديث بالأرض الّتي يرتبط بها جماعة مِن النّاس بعلاقةِ المصلحةِ لِما تقدّمه من أجلِ بقائهم وحسن استمرارهم وتقدّمهم، قبل أن تسِمَهم تلك الجغرافيا "العزيزة" بِسِماتٍ خاصّة، شكلًا ونفسًا وعقلًا ومؤهّلات، فتصبح تعويذةً يحملونها في أعناقهم ووجدانهم، يذودون عنها، ويحنّون إلى تلك الأرض الأولى كلّما ابتعدوا.

وهذا الشُّعور بالانتماء يقوى ويشتدّ على المستوى النّفسيّ للفرد كلّما اِنسحبنا أكثر إلى الدّاخل ليغدو حنينًا جمعيًا لقاطني الأوطان أينما كانوا: من الوطن الكبير إلى أمكنةِ الطّفولةِ، إلى الزّوايا التي نصَبْنا فيها أغطيةَ الأسرّةِ خِيَمًا هشّةً منحتنا الشّعورَ بأمانٍ لذيذٍ لم تمنحنا إيّاه جدران الباطون المسلّح، أمانُ الرّحمِ الذي خرجنا منه إلى عالمٍ لا يربطنا به إلا الشّعورُ بالوجود وبالزّمان.

نزل الإنسانُ البدائيّ عن الأشجار في وطنه الأوّل وقطنَ الكهوفَ كأمكنةٍ تحميه في عالمٍ متوحّش، وتأسّس الرّابط المتين بينه وبين الأرض التي استوطنها مع انتقاله من الصّيد إلى الزّراعة التي وفّرت له الاستقرار ووسائل حياةٍ أفضل، ومنها إلى حياة العشائر والقبائل التي غدا لها نظامُها الاجتماعيّ والسياسيّ وتصوّراتها الخاصّة عن العالمِ وظواهره المريبة، وعمّن يقفُ وراءها، قبلَ ظهورِ الممالك والدّول والامبراطوريّات. فكان الوطنُ بطبيعته محرّكَ خيال الإنسان ومنبعَ كلّ اكتشافاته وإبداعاته وتصوّراته حتّى الماورائيّة منها.

في الدّنيا الحديثة والمُعاصرة تُذكَرُ الإبداعاتُ، ولكنّنا لا ننسى أنَّ شُعوبَ الأوطانِ دخلت فِي صراعات مُرعبة طَرحت أسئلة وجوديّة كبرى، بحيثُ لم تكن القنبلة الذريّة هي الأداة المُبتَدعة والنتيجة الوحيدة في هذه الدّوامة من السّعي إلى مزيد من التوسّعِ والسّيطرة خلف الحدود، ما رجّحَ كِفّةَ الإنسان–الصّيّاد بطبعه الّذي اكتشف خيرات الأرضِ الهائلة وراكم معارفه بما يجعله سيّدًا على العالم ومنتصرًا على أقوام أخرى. إنّ اِتّساع دائرة الصّيد وتطوّر أدواته هو ما وسَم ويسِمُ التّاريخ القديم والحديث والمُعاصر فوق جغرافيا الأوطان رغمَ ابتكارِ "قوانين رومنسيّة" لردع رغبةَ الصيّادين بالمزيد من الهيمنة.

تجدر الإشارةُ إلى أنّ الوطنَ بقي مفهومًا حميميًّا خاصًّا، بغضّ النّظر عن تقلّص مساحته أو تمدّدها، فشعوب الأوطانِ المُنتصرةِ لا تَعتبر المناطق الجديدة التي "احتلّتها" أوطانًا لها، إنّما أسواقًا أو مستعمراتٍ جديدةً. فمفهوم الوطن يردّنا دائمًا إلى الجغرافيا الأولى التي استوطنتها الجماعة البشريّة، وإلى فكرة الشّعور بالحماية والأمان، أو بالاقتدار الذي يُبرز من جديد

الحاجة النّفسية الأصليّة إلى السّيطرة على رقعة صيدٍ واسعةٍ اسمها الكرة الأرضيّة. فهل هكذا هي "نهاية التّاريخ"؟

من ناحية أخرى، إنّ مفهوم الوطن بالعلاقة مع الآخِرة بالمعنى الدّيني مسألة تبدو بغاية الحساسيّة والتناقض، بحيث يجب فهمُ النّظرةِ إلى مفهومين: الوطن والعالم. والخوض في المسألة ينتهي أحيانًا بما هو أكبر من قنبلة ذريّة لا يمكن تفصيل الحديث عنها في هذه العُجالة.

لقد أُشِيرَ إلى العالم في الفكر الدّيني، بتسميات مُختلفة، بوصفه موطن الكائن المخلوق، فكان العالمَ الماديَّ المنقوصَ بالتعلّقِ بما هو فانٍ، ومصدرًا للّهْوِ والبعد عن عالم الحقّ والحقيقة، وكان أرضَ الميعاد والهيكلَ الرّبّانيّ، وصورةَ الإبداع الإلهي، ونقيضَ "مملكةِ الأب"، كما وكان أيضًا دار الفناءِ ودار الحرب والجهادِ والسّلام .. والواضح في مُعظم تلك التّعاليم أنّ المقصود هو الإنسان كأمّة/ مُجتمعٍ بغضّ النّظر عن شكلِ الجغرافيا ومساحتها.

في البوذيّة، رابع أكبر ديانات العالم، لا تبدو فكرة الوطن كجغرافيا لمكانٍ محدّد ذات قيمة واضحة في خضمّ الفلسفة البوذية وغوامضها الكثيرة. فالبوذيّة تدعو إلى عدم التعلّق بالعالم بشكل كامل أو بأي شكلٍ للحياة الماديّة، بغيةَ الوصول إلى "النّيرفانا" بعد التخلّص من "الكارما" التي تنتهي مع كلّ دورةِ حياةٍ جديدة بالعودةِ إلى العالم. الموتُ والتلذّذُ بالمكوثِ في العالم الإلهي، هو حلمُ البوذيّ وغايتُه الكبرى. لذلك لا يظهر "الوطن" إلا كأرضٍ للتّجارب الإنسانيّة القاسية والمؤلمة التي يمرّ بها البوذيّ خلال وجوده على الأرض في دورات التّناسخ الجحيميّة.

أما في اليهوديّة فقد اعتُبرت العودة إلى "صهيون" جزءًا من الحلم اليهوديّ الذي يعود إلى تدمير "الهيكل الأول–هيكل سليمان". كانت أرض فلسطين منطلق الفكرة الأوسع التي تعتبر المنطقة من الفرات إلى النيل أرضًا "لدولةِ إسرائيل". هذا على الرّغم من أنّ المحاولات الأولى بدأت بطروحات لإقامة هذا "الوطن" في الشّرق الأقصى الرّوسي، وفي كيمبرلي في أستراليا وفي جنوب غرب تسمانيا...

يكشف الله في اليهوديّة قوانينه ووصاياه لموسى على جبل سيناء. وبصرفِ النّظر عن الأفكار المؤسّسة لليهودية فإنّ "أرض إسرائيل" تحديدًا هي أرض الربّ التي تفوق بقدسيتها أية أرضٍ أخرى. إنّها الأرض الموعودة لليهود في التوراة والتي يجدون فيها هويتهم، وللأمكنة فيها أهميّة ودلالاتٌ في توثيق السّيرة التي تزعم وعدَ الله "بأرض الميعاد".

تجدر الإشارةُ إلى أنّ الوطنَ بقي مفهوماً حميميّاً خاصّاً بغضّ النّظر عن تقلّص مساحته أو تمدّدها

تأتي المسيحيّة لتحسم كثيرًا من المسائل وتصوّبها في ردّ مباشر من يسوع نفسه حول فهم "التّعليم الإلهي" الذي أُعلن عنه في اليهوديّة، حيث كان حريصًا على تأكيد أنّ "مملكة الأب" أكبر من "صهيون" وأنّ "الهيكل" المؤسّس "لوطنٍ" مزعومٍ هو أمرٌ تافه أمام قدرة الله وجبروته. "اهدموا هذا الهيكلَ، وأنا سأبنيهِ في ثلاثةِ أيّام" (يوحنّا ٢:١٩) "لقد استغرقَ بناءُ هذا الهيكلِ ستًّا وأربعين سنةً وأنتَ ستبنيه في ثلاثةِ أيّام؟" (يوحنّا ٢:٢٠).

يعلن يسوعُ بوضوح أنْ "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (مرقس ١٢:١٧) والقسم الأول من هذا القول يتكلّم عن الامبراطور الروماني الذي حكم بالقوة والقانون، وكان الواجبُ هو الولاء له ودفع الجزية والطاعة. وقد صار "قيصر" يعني لاحقًا السّلطة المدنيّة والقائمين عليها، وأحيانًا الوطن على اتّساعه، أو سلطة الوالدين، وقد يكون أيضًا أيَّ شيء من الاهتمامات الدّنيويّة. يطالب يسوع بالطاعة والاحترام للسّلطة وأن نحبّ الوطن ونخلص له ونخضع لشرائعه. وهذا الخضوع لا يعني الاستكانة السّلبيّة، وهو المعروفُ عنه أنّه دخل الهيكل وطرد منه اللّصوص والتجّار، "وقال لهم: مَكْتُوبٌ: "سَيُدْعَى بَيْتِي بَيْتَ صَلاَةٍ"، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَجْعَلُونَهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ" (متّى ٢١:١٢)

يقدّم يسوعُ الجواب النّهائي عن الرّؤية إلى "الوطن"، في الفصل الذي أقامه بين عالم السّماء والأرض: "مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لَكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أُسَلَّمَ إلى اليهود" (يوحنّا:١٨:٣٦).

> **إنّ الوطن هو المكان الذي نشأنا فيه عبر التاريخ واكتسبنا منه خصوصيّاتٍ طبعت تفكيرنا ونفوسنا ومخيّلاتنا، كما وأدياننا، بطابعها الخاصّ**

يمكننا اختصار الموقف من الوطن في المسيحيّة بدعوتها الإنسان لأن يكون متواضعًا صالحًا محبًّا وعادِلًا في "مملكةِ الأرضِ"، قلبُه غيرُ متعلّقٍ بمكانٍ أو قيمةٍ ماديّة، لكي يُقبَل في "مملكة الأب السماويّة".

أمّا في الإسلام فنلحظ حضورًا أكبر لمفهوم الوطن بالمعنى الجغرافي الماديّ المُحدَّد، وتنظيمَ معاملاته. فالدّعوةُ إلى حبّه والتعلّق به واحترامه واجبٌ، وحقوقُه علينا كبيرةٌ ويجب إيفاؤها. وها هو النّبيّ (ص) حينَ هجرتِه من مكّة إلى المدينة المنوّرة، يقفُ على مشارفِ وطنه مكّة، ينظر إليها حزينًا، ليقول:"واللهِ إنّكِ أحبُّ بلادِ اللهِ إلى الله وإلى نفسي، ولولا أنّ أهلَكِ أخرجوني منكِ ما خرجتُ". كما نجدُ في القرآن الكريم آياتٍ كثيرةً عن الوطن والدّعوة إلى محبّته والذّود عنه: {ولو أنَّا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفسَكم أو اخرجوا مِن ديارِكم ما فعلوا إلا قليلٌ منهم..} (النّساء-٦٦)، {وإذْ أخذنا ميثاقَكم لا تسفِكونَ دماءكم ولا تُخرجونَ أنفسَكم من دياركم} (البقرة-٨٤)، {لا يَنهاكم اللهُ عنِ الذين لم يقاتلوكم في الدّينِ ولم يُخرِجوكم من ديارِكم أنْ تَبرُّوهم وتُقسِطوا إليهم إنَّ اللهَ يحبُّ المُقسِطين} (الممتحنة-٨).

هذا وقد برزت مع الإسلام فكرةِ الوطن بخصوصيّته العربيّة، بما عند أهله من قيمٍ يفاخرون بها وسماتٍ اكتسبوها عبر التّاريخ، وخصوصيّة الجماعة المؤمنة بالإسلام، النّاطقة بالضّاد كلغةٍ أرادها الله للقرآن، كما في الحديث الشّريف: "وكنتم خيرَ أمّةٍ أخرجت للنّاس.."، بمعزلٍ عمّا إذا أكان المقصود هنا الذين خرجوا مع النّبيّ من مكّة، أو العرب المسلمين بشكل عامّ.

ختامًا، إنّ الوطن هو المكان الذي نشأنا فيه عبر التاريخ واكتسبنا منه خصوصيّاتٍ طبعت تفكيرنا ونفوسنا ومخيّلاتنا، كما وأدياننا، بطابعها الخاصّ. منه انطلقنا إلى العالم بالأبجديّةِ والأديان والثّقافات والآداب والعلوم، وبحملات الغزو أيضًا. هذا الوطن-الجغرافيا الذي شيّدَ فهمنا "للنيرفانا"، "لمملكةَ الأب"، أو "لدار الآخِرة"، سيبقى-على عِلّاته- الملاذَ، والإثمَ الذي يلاحقنا. هو مسقطُ الرؤوسِ ورافعُها، وهو الحاضِرُ دومًا في كلّ شكلٍ من أشكال النّجاح والتفوّق والإبداع.

هنيبعل كرم

شاعر وروائي لبناني

حائز على ماجستير في الدّراسات المسيحيّة الإسلامية - جامعة "البلمند". ودبلوم في الفلسفة - الجامعة اللبنانية - بيروت. أستاذ اللّغة العربيّة والفلسفة في ثانوية سيّدة "البلمند". منسّق اللّغة العربيّة في القسم الثانويّ- ثانوية سيّدة البلمند. أستاذ اللّغة العربيّة لغير النّاطقين بها في معهد القديس يوحنّا الدّمشقي اللاهوتي. جامعة البلمند. ناشط في الحقل الإعلامي والاجتماعي. ناشر في العديد من الصّحف والمواقع العربيّة وعضو اتّحاد الكتّاب اللّبنانيين، له العديد من المؤلفات، والمقالات العلميّة، والأدبيّة.

الوطن..
إعادة تعريف، بين الأيديولوجية وملاعب الصبا

سرجون كرم *

لو توجّهنا إلى الشارع العربيّ بقصيدة، "وطن النجوم" للشاعر المهجري إيليا أبي ماضي، والتي يقول فيها:

وطن النجوم أنا هنا — حدّق أتذكر من أنا
ألمحت في الماضي البعي — فتى غريرًا أرعنا
يتسلّق الاشجارَ لا ضجرًا — يحسّ ولا ونى
ولكم تشيطن كي يقول — الناس عنه تشيطنا
أنا ذلك الولد الذي — دنياه كانت ههنا

أو بقصيدة "مَوطني" للشاعر الفلسطينيّ إبراهيم طوقان:

موطني، الجمالُ والجلالُ والسناءُ والبهاءُ في رباك

الشباب لن يكلّ همّه أن تستقلّ أو يبيدْ

نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبيد

لا نريد ذلّنا المؤبدا وعيشنا المنكّدا

بل نعيد مَجدنا التليدْ

وَقمنا بطرح السّؤال: "أيّ من القصيدتين أقرب إلى مُصطلح الوطن لديك؟"، فعلى الأغلب أن تكون قصيدة إبراهيم طوقان هي الغالبة على التفكير الجمعيّ العربيّ، ولو كان السؤال في النصف الثاني من القرن الماضي، لكان جزمًا هذه القصيدة.

إذ يكفي أن تذكر هذه الحروف الثلاثة "وطن" أمام مُعظم سُكّان العالم العربيّ حتّى تلوح أمام الناظرين الحدودُ الجغرافيّة السّياسيّة لما يُسمّى بلادًا لها علم ونشيد وطنّي وجيش وطنيّ ومدارس وحكومة وطنيّة وبرلمان وطنيّ وسياسيّون مُنقسمون بين وطنيّين يعملون لخير وصالح أبنائه أو غير وطنيّين يقمعون شعوبهم وينهبون ثروات الوطن، يُضاف إلى ذلك، هذا الشعور الحماسيّ لنذر الغالي والنفيس في سبيله أو السأم المطلق وخيبة الأمل به وبمفاهيمه. العلّة ليست في القصيدة بل في خطورة هذا المُصطلح القابل لكلّ الاحتمالات وأوّلها "التّسييس"، وخطورته باحتوائه على طبقات يختار مِنها المرء الطبقة التي تناسب تصوّره. ولعلّ مفهوم "الوطن" في العالم العربيّ يقترب من التحذير الذي أطلقه عالم الثقافات الألمانيّ هيرمان بارزينغر (١٩٢٦-٢٠٢١) بقوله: "مَن يذكر كلمة وطن فإنّه يتحرّك بالقرب مِن مُنحدر إيديولوجيّ، وعليه الانتباه ألا يسقط".

هنا تلوح أمامنا إشكاليّة تستحق الدّراسة والإضاءة عليها، خصوصًا ومعظم بلدان العالم العربيّ حقل وقود مُشتعل أصاب سكانها في صميم قناعاتهم وخاصّة شُعراءها الشّباب الذين مِن المُفترض أن يرسموا القواعد الجماليّة لهذا الوعيّ الجمعيّ والمُجتمعيّ. إنّ مَسألة صعود الإيديولوجيات وسيطرتها ومِن ثمّ إنهيارها خلخلت "الوطن" كقيمة بحد ذاته.

ليس تقليدًا للنّظريّات الغربيّة الّتي تتعامل مَع هذا الموضوع إنطلاقًا مِن تاريخها ونهضاتها الثّقافيّة وَثورتها الصّناعيّة وانفجار المُدن عَلى حساب الرّيف، ففي التّراث الأدبيّ العربيّ الكلاسيكيّ نماذج كثيرة عن هذا الموضوع سبقت ظهوره ونظرياته في الآداب الأخرى، وهذا ما يحتاج إلى مقالات أخرى. لا بل إنّ في التراث العربيّ ما يدحض بعض النّظريات الانتروبولوجيّة والاجتماعيّة الغربيّة القائلة بأنّ البدو لا وطن لهم. إلا أنّ الأمر هنا هو لتسليط الضّوء على إشكاليّة تتشابه خيوطها في العالم العربيّ بشكلٍ كبيرٍ مَع سكّان الأرض قاطبةً، وطرح السّؤال أمام القارئ العربيّ: "هل الوطن فعلاً الحدود الجغرافيّة السياسيّة فقط الّتي تسميها بلادك وتربّي أجيالك على حبّها برموزها علمًا ونشيدًا وجيشًا وتقف حياتك للزود عنها؟".

إن نظرنا إلى المعنى المُعجميّ فِي اللُّغة العربيّة لكلمة (وطن) نجدها تتشابك في معناها أكثر مع مرادفتها الألمانيّة Heimat أكثر مِن اللُّغات الأوروبيّة الأخرى مِثل الفرنسيّة والإنجليزية.

إن نظرنا إلى المعنى المُعجميّ فِي اللُّغة العربيّة لكلمة «وطن» نجدها تتشابك في معناها أكثر مع مرادفتها الألمانيّة Heimat أكثر مِن اللُّغات الأوروبيّة الأخرى مِثل الفرنسيّة والإنجليزية. إلى هذه الإشكاليّة اللُّغويّة تعرّض الرّوائيّ والمؤلّف المسرحيّ والصّحفيّ السّويسريّ، ماكس فريش (١٩١١-١٩٩١) حين ذكر أنّ اللُّغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة غير قادرتين على تعريف

دقيق لكلمة «وطن». ولعلّ الأمر يعود إلى ضياع السّياق بسبب الغموض غير المُنفصل عن التأويل المتعدّد للوطن. فَوفقًا لِماكس فريش فإنَّ مُصطلح My Country يُوسّع الوطن وَيضعه ضِمن حدود مناطقيّة. Homeland تجعلنا نتصوّر مُستوطنات، أمّا Motherland (الوطن الأمّ) فلها وقع أرقّ مِن Vaterland (الوطن الأب) وتطلب التعامل معها بشغف ومحبّة أكثر مِن شُعور الحماية والدّفاع عنها. أمّا أمام المُصطلح الفرنسيّ LA PATRIE فإنّ العَلَم يرتفع فورًا عَلى السّارية.

إن عُدنا إلى لِسان العرب لابن مَنظور الأنصاريّ (١٢٣٣–١٣١١) نجد تحديد مُصطلح «وطن» على الشّكل التّالي:

الوطن: المنزل تُقيم به، وهو مُوطن الإنسان ومَحلّه. وأوطان الغنم والبقر أي مَرابضها؛ ووَطنَ بالمكان وأوطن أي أقام. وأوطنه: اتخذه وطنًا: يقال أوطن فلانٌ أرض كذا وكذا اي اتخذها مَحلا ومسكنًا يقيم فيها.

وفي أوّل مُعجم حديث فِي القرن العشرين «متن اللُّغة» للعلامةِ اللُّغويّ أحمد رضا العامليّ الّذي وضعه بتكليف مِن مَجمعِ اللُّغةِ العربيّة فِي دمشق بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤٨ نجد تعريفات للوطن لا تختلف عنها في المُعجم الكلاسيكيّ:

وطَنَ «يطِنُ» وطْنًا بالمكان: أقام به وألفه. وطّن المكان: اتخذه وطنًا يُقيم فيه. وأوطن بالمكان: أقام واتخذه وطنًا، وأوطن البعير المكان: اتخذه مَناخًا أي برك فيه. الوطن: المنزل تقيم فيه. «وربّما سُكِن للضرورة». و(كذاك) مربض الغنم والبقر الّذي تأوي إليه. وجمعه: أوطان.

وهكذا نستنتج مِن التّعريف اللُّغويّ أنّ مُصطلح «وطن» لم يكن له تلك التّداعيات المَعرفيّة السّياسيّة القوميّة الّتي أُدخلت عليه فِي القرن التّاسع عشر عندما بدأت الشُّعوب العربيّة تطرح مسألة هويّتها وانتمائها السياسيّين بعد تراجع قوّة الخلافة العثمانيّة ودخول التأثيرات السّياسيّة والثّقافيّة الغربيّة.

فالوطن، هو: علاقة وجدانيّة بين المرء والمكان، ذو طبيعة جغرافيّة وثقافيّة واجتماعيّة تُصاب بالتوتّر والحساسيّة فور نشوء الشُّعور بأنّه مُهدّد بِالفقدان. الوطن فِي كلِّ مَكان: ملاعب الطفولة، مطبخ الوالدة، حكايات الجدّات، المقاهي الّتي نَجلس فيها و«الدكاكين» الّتي نشتري مِنها يوميًا، هو المكان الّذي تشعر فيه بالهويّة والانتماء حتّى فِي لهجتك المحكيّة العاميّة بكل ألفاظها وصوتيّاتها. الوطن هو مُحيط المرء كما عبّر الشّاعر الألمانيّ الكبير، غوته (١٧٤٩–١٨٣٢) في أحد أحاديثه عن مفهومه للوطن بقوله: «كلّ هؤلاء الناس النجباء الذين تربطك بهم علاقة طيّبة، هذا ما أسمّيه وطنًا».

فالوطن، هو: علاقة وجدانيّة بين المرء والمكان، ذو طبيعة جغرافيّة وثقافيّة واجتماعيّة تُصاب بالتوتّر والحساسيّة فور نشوء الشُّعور بأنّه مُهدّد بِالفقدان.

فِي عام ٢٠١٥، قمت مع الدكتور «سيباستيان هاينه»، بإعداد مشروع ترجمة أنطولوجيا شعرية لبنانيّة تتناول مفهوم الوطن عند الشعراء اللبنانيّين الشباب. آثرنا منذ البداية أن لا نَضع توجهًا للمفهومِ وأن نترك العنوان مفتوحًا لحين الإنتهاء مِن جمع قصائد عشرين شاعرة وشاعر. فالأدب عَلى حد قول عالمة الانتروبولوجيا الألمانية إينا – ماريا غريفيروس (١٩٢٩–٢٠١٧) شكل مِن أشكال التعبير عن الثقافة الّتي تعكس دائمًا البعد الاجتماعيّ لِمفهوم «الوطن». وقد توصلت غريفيروس في دراساتها إلى اِستنتاج مفاده أنّ النّاس فِي سياقاتهم المُختلفة في حاجة دائمة إلى الشّعور بالأمان والرضا. فالوطن مُرتبط بشعور الأمان والأمر المسلّم به والواعد بحياة أفضل. كلّ اِمرئ يرغب أن يكون لديه الشّعور بالانتماء. فالوطن هو الفضاء المكانيّ الّذي يُشكّل فيه الإنسان حياته اليوميّة.

لقد كانت نُصوص الشّعراء اللّبنانيّين تُعبّر عن خيبة أمل الشّعراء وغربتهم وتغرّبهم وقنوطهم بفكرة الوطن، فمن تشبيهه بالحذاء! إلى السّأم المُفرط لحدّ التمنّي لو كانت الكرة الأرضية كرة يركلها، إلى انكماش الوطن في الذات الشاعرة أو انفلاشه في اتجاهات خيالية لا جغرافيّة – مكانيّة. كنتيجة مُخيفة لشبابٍ فقدوا الأرض تحتهم، مُعلّقين في فضاء من الوحدة واليأس المطلق نتيجة الظروف السّياسيّة– بالدرجة الأولى– والاِجتماعيّة والاقتصاديّة في بلادهم.

كلّ هذه الموضوعات دفعتنا إلى اختيار عنوان «وطن للتهجئة» باللّغة العربيّة وbuchstabieren Vaterland باللّغة الألمانيّة وليس Heimat، كون النّصوص تُمثّل مأزق الشباب أمام التطوّرات السياسيّة أولاً في مجتمعهم واهتزاز مفهوم الهويّة والانتماء إلى واقع أو متخيّل يسود فيهما الهدوء والطّمأنينة وأمان الطّفولة.

ومن باب الاطلاع والتجربة، ومن خلال مشروع نقل الشعر العربيّ الحديث إلى اللّغة الألمانيّة، فإنّ تجربة الشّعراء اللّبنانيّين الشباب لا تختلف عن تجربة الشعراء في دول عربيّة ملتهبة حروبًا وأزمات اِقتصاديّة ولا عن تجربة شعراء من دول غير عربيّة يختبرون تجربة المأساة نفسها.

إنّ طابع الخوف والقلق المتزايدان مِن خسارة المكان والرابط الاجتماعيّ جعلتا الفيلسوف وعالم الاجتماع البولندي–البريطاني زيغموند باومان (١٩٢٥–٢٠١٧) وعالمة الثقافات والانتروبولوجيا الروسيّة الأمريكيّة سفيتلانا بويم (١٩٥٩–٢٠١٥) يتحدّثان عن انبلاج عصر الـ Retrotopia أو كما سمّياه «الحنين إلى نار قبيلة متخيَّل»، فهو بالأحرى «وباء عالميّ من الحنين إلى الماضي، يتمّ التعبير عنه بالحاجة العاطفيّة المنتشرة للمجتمع والذاكرة الجماعية والاستمراريّة في عالم يتجزّا بشكل متزايد. إنه الحنين كظاهرة اجتماعية باعتباره «أحد أعراض عصرنا»، وهو آليّة دفاع أمام إيقاعات الحياة المُتسارعة.

فأين هي نار القبيلة في الشّعر العربيّ الحديث؟ في الوطن من حيث جئنا أو في الوطن حيث نريد أن نذهب «خيالاً أو هروبًا أو لجوءًا إلى مكان آخر؟

لا ريب أنّ هذا الموضوع مِن أشدّ الموضوعات حساسيّة ويحتاج إلى إعادة تصويب أو لفت النظر إليه، سيّما أن الكرة الأرضيّة أضحت قرية صغيرة تتشابك إشكاليّاتها المتسارعة وتعدّ إقليميّاتها جزءًا مكوّنًا للفضاء الإنسانيّ والعالميّ.

في أحد خطاباته يقول أحد رؤساء دولة ألمانيا الاتحاديّة: «أعتقد أنّ الوطن يشير إلى المستقبل وليس إلى الماضي. الوطن هو المكان الذي نصنعه نحن كمجتمع». فإنقاذ هذا المفهوم في الشعر العربيّ الحديث وإخراج القصيدة العربيّة من غرف الإبحار المغرق في الذات أو جَلْدها أو المعالجة النّفسيّة الذاتيّة ضرورة حتميّة يمكن أن تغيّر شريحة كبيرة في عقليّة المجتمع العربيّ وخاصّة أنّ عدد الشعراء فيه لا يستهان به.

د. سرجون فايز كرم

أستاذ جامعيّ، وباحث، وشاعر.

ليسانس في اللُّغة العربيّة وآدابها، وماجستير اختصاص لسانيات من جامعة "البلمند". شهادة في اللُّغةِ الألمانيّة وآدابها، كلغةٍ فيلولوجيّة أجنبيّة مِن جامعة "هايدلبرغ" ألمانيا. ونال الدكتوراة في الأدب العربيّ على أطروحة، بعنوان: (الرمز المسيحيّ في الشّعر العربيّ الحديث) من جامعة "هايدلبرغ"، في ألمانيّة، وحاليًا أطروحته للأستاذيّة في جامعة بون، ألمانيا. وهو يعمل أُستاذ للّغة العربيّة وآدابها، والترجمة في معهد الدراسات الشرقيّة والآسيويّة، التّابع لكلية الفلسفة جامعة بون ألمانيا. وهو مشرف على ترجمة "إفادات الضحايا الناجين من قنبلتي هيروشيما وناغازاكي" في إطار التعاون بين جامعة بون، وقاعة هيروشيما التذكاريّة من أجل السلام لمناصرة ضحايا القنبلة الذريّة وشبكة المترجمين لعولمة شهادات الناجين من القنبلة الذريّة. مدير مشروع الترجمة للشعر العربي الحديث إلى اللُّغةِ الألمانيّة بمعاونة الدكتور "سيباستيان هاينه"، والمترجمة "كورنيليا تسيرات". صدرت له خمسة دواوين شعرية:

تقاسيم شاذّة على مزاهر عبد القادر الجيلاني (بيروت ٢٠٠٦) – في انتظار موردخاي (مع ترجمة إلى اللّغة الألمانيّة – ألمانيا ٢٠١١) – هذا أنا (مع ترجمة إلى اللّغة الألمانيّة– ألمانيا ٢٠١٤) – سندس وسكّين في حديقة الخليفة (مع ترجمة إلى اللّغة الألمانيّة – ألمانيا ٢٠١٨– ترجمة د. سيباستيان هاينه) – قصب الصمت (مع ترجمة إلى لُغة الماندرين الصينيّة تايوان ٢٠١٩/ ترجمة الدكتورة ليو نا)، بالإضافة إلى ديوان "سمكريّ الهواء – العليم بكلّ شيء" عن المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر بيروت / عمّان ٢٠٢٢.

الوطن بين الارتباط المكاني والعاطفيّ

ديزيريه كايزر *

تتنوّع الإجابات حول مفهوم الوطن ومعناه، إذ إنّ الوطن أضحى منذ فترة طويلة مُصطلحاً مُرتبطاً بالصّراع السّياسيّ. فالبعض يربط الوطن بالحفاظ على الثقافة والهويّة والتراث، في حين يتصدّى آخرون لهذه الفكرة الّتي عفا عليها الزّمن بقِيم جديدة مثل الاِنفتاح على العالم والدّيناميكيّة والتنوّع (شارنوفسكي ٢٠١٩).

إلى جانب هذه التّباينات فإنّ مَفهوم الوطن يُنظر إليه مِن اليمين السّياسيّ– وكذلك مِن اليسار والليبراليين– على أنّه مُشكِل للهويّة ومرتبط بقوميّة السّكان ومجالهم الإقليميّ.

وفِي اللّغة الألمانيّة ثمّة العديد مِن المُصطلحات والدّلالات الّتي يمكن أن تُشير إلى مَفهوم الوطن، لذلك لن يكون مِن السّهل علينا، ترجمة «مفهوم الوطن» إلى اللّغةِ العربيّة بشكلٍ حرفيٍّ أو دقيق أو وحيد. فغالبًا ما تعني هذه الكلمة مكان الولادة، وكذلك مَشاعر الإنتماء والهويَّة المرتبطة بهذا المكان (رومشيلد، ٢٠١٨). وقد كان مُصطلح الوطن حتّى فترة لا بأس بها مِن القرن التّاسع عَشر مَفهومًا قانونيًّا وجغرافيًّا بحتًا يربط حقوقًا مُعيّنة، مِن بينها حقّ الإقامة، بوضع مكتسب ليس فقط على المستوى المَكانيّ، بل أيضًا وقبل كلّ شيء بالملكيّة والممتلكات. فالأشخاص الّذين لا ممتلكات لديهم تمّ اعتبارهم على أنهم أشخاص لا وطن لهم، بغضّ النظر عن مكان ولادتهم، في حين أنّ مَن كان أوفر حظًّا مِن ناحية الحيازة على أصول وممتلكات أمكنه ذلك من الحصول على حقّ الإقامة في مكان غير مكان ولادته على أنه وطنه (باوزينغر، ١٩٨٦). ولم يتغيّر هذا المفهوم للوطن إلا مع ظهور الدّولة القوميّة كأشكال جديدة للتنظيم السّياسيّ في القرن العشرين.

فانطلاقًا مِن هذا التّاريخ بات الوطن يُفهم في المقام الأوّل على أنّه إرتباط عاطفيّ بالإقليم القوميّ الجغرافيّ، والمجتمع الّذي ولد المرء داخلهما.

ولا يزال الفهم السّائد –فِي ألمانيّا– للجنسيّة يُحدّده قانون الدمّ؛ أي حقوق مدنيّة في أصل مشترك من ناحية الدّم، وهذا على عكس «حقّ الأرض»، أي حقّ اكتساب الجنسيّة نسبة إلى مكان الولادة والذي يربط الحقوق المدنيّة بالدولة، ومن خلاله يتمّ ضمّ أيّ كائن وُلد في أراضي الدولة بغضّ النظر عن أصله. وهذا ما يدلّ على أنّه في ألمانيا، وكذلك في بلدان أخرى، هناك توتّرات بين مفاهيم مختلفة لمصطلحات مثل الارتباط بالوطن، والتنقّل، والتغيّرات في الحياة اليوميّة. وغَالبًا ما يُنظر إلى هذه التوتّرات على أنّه لا يمكن التوفيق بينها. فإنْ كانت الحقوق المَدنيّة وحقّ الإقامة تَستندُ فِي المَقام الأوّل على مفهوم أخلاقيّ يربط الانتماء القوميّ بمكان الولادة، فهذا يعني أنّ جميع الوافدين الجُدد، وكذلك ذريّتهم، مستبعدون فعليًّا مِن هذا المجتمع القائم على مفهوم السّلالة، الأمر الّذي سيؤدّي إلى تصنيف الناس على أنهّم غرباء ودخلاء (بروباكر ١٩٩٢).

يُلاحَظ في جميع أنحاء أوروبا أنّ الجماعات الشّعبويّة

في ألمانيا، وكذلك في بلدان أخرى، هناك توتّرات بين مفاهيم مختلفة لمصطلحات مثل الارتباط بالوطن، والتنقّل، والتغيّرات في الحياة اليوميّة. وغَالبًا ما يُنظر إلى هذه التوتّرات على أنّه لا يمكن التوفيق بينها.

اليمينيّة تُغذّي مَخاوف التغرّب وهيمنة العنصر الأجنبيّ، وتروج لفكرة فُقدان للوطن. لقد أدّى هذا النّوع مِن الإستغلال السّيّاسيّ إلى إضعاف مِصداقيّة مَفهوم الوطن، خاصّة أنّه يعكس فقط العلاقات الكامنة بين النّاس وبيئتهم الاجتماعيّة والإقليميّة بطريقة مُشوّهة. يجب فهم الوطن بعيدًا عن مفهوم الأراضي القومية على أنّه وجهة نظر نفسيّة، وشعور ذاتيّ مُستقلّ عن التعريفات السياسيّة والقانونيّة. وبالتالي، ومن وجهة نظر نفسيّة، يتكوّن الوطن من المواقف والآراء الفرديّة تجاه المكان والمجتمع والتطوّر الفرديّ. هذا المفهوم يتيح أيضًا للمرء إمكانيّة اِختيار وطنه بحرية.إنّ خسارة الوطن يمكن أن تكون من خلال الحروب والكوارث الطّبيعيّة، ويمكنها أيضًا أن تكون بسبب التحوّل الأساسيّ في لبيئة والمحيط من خلال التّدخل البشريّ. فعلى سبيل المثال يتبنّى «أوليفر كونتني» (٢٠١٤)، فكرة مَفادها أنّ مُعظم المُدن لم تعد موجودة بالنسبة إلى البالغين الذين نشأوا فيها وتركوها وعادوا إليها لاحقًا، إذ تمّت إعادة أو تغيير بنائها بحيث لا يمكن الشعور بالوطن فيها. لذلك لا يمكن العيش في المدينة نفسها مرّتين.

فمن دون بعض إدارة التنوّع في عالم متنوّع وعابر للحدود بشكل متزايد سيكون من الصّعب إعطاء شعور بالمواطنة في مكان إقامة جديد. وبالتالي فإنّ تكوين وطن بشكلٍ مُشترك مَع آخرين في مِساحة مُشتركة من الحاضر ليس مُجرّد رغبة إنسانيّة، بل ضرورة.

ديزيريه كايزر

أكملت البكالوريوس في الدراسات الشرقيّة والآسيويّة في جامعة بون، وحصلت على الماجستير في اللّغة العربيّة والتّرجمة. تَصبُّ اهتماماتها حاليًا، كطالبة دكتوراة، حول التحوّل الاجتماعيّ الراهن في الشرق الأوسط والأدنى. تمكّنت من خلال عملها لدى الهيئة الألمانيّة للتبادل العلميّ والمركز الفيدراليّ للتربيّة من الجمع بين شغفها بالسياسة والعلوم. تعمل حاليًا في مركز للهيئة الألمانيّة للتبادل العلميّ كمساعد باحث علميّ في برنامج المركز الإفريقيّ للمُناخ والبيئة – مُستقبل السافانا الأفريقيّة، وهو برنامج تابع لمركز تطوير الأبحاث في جامعة بون. وتساهم في عملها من خلال التبادل الوثيق بين جامعة كولونيا وجامعة نيروبي (كينيا) وجامعة فيليكس أوفويّ بوانيي/ أبيدجان (ساحل العاج) في التبادل المشترك والتعاون العالميّ المتعدد التخصصات بين ألمانيا وشرق وغرب أفريقيا. عضو في حزب الخضر الألماني ناشطة في مجال الهجرة والإندماج وتكوّين مُستقبل مُستدام مُتكافئ.

مِن كتاب على قدر أهل العزم

(ص: ١٧١-١٧٧)

الدّكتور حمد بن عبد العزيز الكواريّ *

حين تدخل أيّ مطار من مطارات العالم، أو حين تتجوّل في أيّ مدينة كبرى من المدن العالميّة قد لا تنتبه إلى أنّ البشر أقرب إلى بعضهم البعض ممّا نتصوّر رغم الاختلافات الثقافيّة بينهم وما قد يحملونه من نظرة غير متناسبة مع هذا الدّفق الإنسانيّ. فالثابت في الأحوال جميعًا أنّ البشر، حتّى إذا لم نقبل بنا في كلمة أخوّة مِن عُمق إنسانيّ يبدو للبعض مثاليًّا، فإنّهم على الأقلّ سيستقلّون طائرة واحدة أو يركبون قطارًا واحدًا أو يزورون حديقة واحدة.

نعم أصبح ركوب القطار ثمّ الطائرة أمرًا اِعتياديًّا ساذجًا لا يكاد يثير الدّهشة أو التساؤل حول هذا الاختراع العجيب. دعك من هذا المسار المُتعرّج المعقّد الّذي أوصل البشريّة إلى الإنعتاق مِن قيود الجاذبيّة.

تُشير أسطورة "إيكاروس وأبيه الصّانع الحاذق ديدالوس"، كما نقلها في صيغتها الأولى "أوفيد" في الفصل الثامن مِن "التّحوّلات" إلى حُلم الإنسان في الانعتاق مِن قيوده الّتي تشدّه إلى الأرض. إنّها قصّة ممتعة تروي حُلم البشريّة بأنّ تُحلّق في السماء ناسية الحذر والخطر، مَحمولة بشهوةِ الإكتشاف والإنتقال مِن عَالم الأرض إلى مملكة السّماء. فهذا الكائن الّذي خُلق ضعيفًا، كما ورد في القرآن الكريم، لو تعلّقتْ "هِمّته بما وراء العرش لناله"، كما ما ورد في الأثر. وإذا كان جناحا إيكاروس المصنوعان من الشمع والريش قد ذابا بمجرّد الاقتراب من الشمس فإن حلم الإنسان المُحلّق في الفضاء ظلّ قائمًا إلى أن تمكّن أحفاد ديدالوس، رمز التقنيّة التي أراد بها الإنسان السّيطرة على الكون، من تجسّيمهِ. بيد أنّ الطائرة التي إن هي إلا وسيلة لتركيز قدرة الإنسان على الترقّي والتسامي بفضل الإرادة القويّة. فمسار البشريّة علامات مُضيئة، رغم الآلام والتعرّجات والانتكاسات، من ترقّ روحيّ وماديّ متواصل. ولسنا نرى "الدبلوماسيّة الثقافيّة" إلا أداة من أدوات التسريع بهذا الانعتاق من حدود الموجود سعيًا إلى المنشود.

ولا شكّ أنّ في جميع الثقافات أشباهًا ونظائر من هذا الحلم الذي نراه اليوم، بفضل التطوّر العلميّ والتكنولوجيّ، ماثلًا أمام أعيننا، نتمتّع بثماره إلى حدّ نسيان أنّه كان منذ عقود خلت

محض خيال وأمنيات.

ننسى أيضًا في غمرة تفاصيل حياتنا الحديثة وعاداتنا المستحكمة أنّنا في تلك الطائرة، نعيش طقوسًا مختلفة وعالمًا يكاد يكون مغلقًا بعاداته وقواعده وآدابه. هذا العالم الكونيّ الذي يوحّدنا ويعبّر عن مشاعرنا الإنسانيّة العميقة وقواعد العيش معًا طيلة الرحلة. كم هي بسيطة هذه الكلمة: رحلة! ولكن شروطها واضحة. لسنا في مكان مُثقل بخصوصيّاتنا الثقافيّة وعاداتنا الاِجتماعيّة ولغتنا الّتي ورثناها وخريطة سيرنا في الطرقات التي ألفناها ولكنّها ليست في الآن نفسه مقطوعة تمامًا عن ذلك كلّه. توازن دقيق يمكّن كلّ واحد منّا من المحافظة على هويّته الفرديّة والثقافيّة ولكنّه يلزمه راضيًا مرضيًّا، بالقبول بِمغامرة تحفظ أمنه وسلامته في ذاك العبور من مطار إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى.

العبور! هذه هي الكلمة السّحريّة الثانية. في الطائرة نتعلّم تقنيّات الاستعداد للمخاطر كسقوط الطائرة لا قدّر الله. وهو طقس من طقوس الطائرة قد يبدو لمن سافر كثيرًا أنّه دخل في العادة والشكليّات، ولكن ليتذكّر كلّ واحد منّا أوّل رحلة له على متن طائرة. ذاك الإحساس الذي قد ينتابنا في غربتنا الظرفيّة، وذاك الاستعداد النّفسيّ للانضباط واتّباع قواعد جديدة في التّعامل ولو ظرفيًّا. كل ذلك يثبت أنّ الإنسان، بمحموله الرمزيّ وعاداته السلوكيّة، الفرديّة والثقافيّة، يمكنه أن يعبر ذاته وما ألفه ليذهب إلى شيء آخر، فيكتسب ثقافة جديدة يشترك فيها مع الرّكّاب الذين لا يعرفهم.

إنّه يجد نفسه في وضعيّة تواصل حقيقيّة تحمله على أن يتخلّص من الكثير من السلبيّات ويتدرّب على انسجام جديد في مُجتمع مُصغّر غير مجتمعه. إنّها ديناميّة شبيهة بما قد يعيشه المرء في مجتمعه الحقيقيّ من تنوّع وقدرة على فهم رموز الآخر دون التفريط في وعيه بذاته.

وتتداول شبكات التّواصل الاجتماعيّ لقطة مُتقنة الصّنع للتحسيس بالعنصريّة. دخلت امرأة في منتصف العمر الطّائرة واكتشفت أنّ المقعد الّذي أُسند إليها كان بجوار رجل أسود. كان مُنهمكًا على ما يُذكر في مطالعة كتاب. فعبّرت عن اشمئزازها من الوضع الذي وجدت نفسها فيه اشمئزازًا يكشف بالنظرة شزرًا إلى محاورها في الطائرة وتعابير وجهها، عن موقف عنصريّ. فما كان منها إلا أن نادت المُضيفة طالبة منها أن تغيّر لها المقعد. استمهلتها المُضيفة لتستشير قائد الطائرة.

> **فهذا الكائن الّذي خُلق ضعيفًا، كما ورد في القرآن الكريم، لو تعلّقتْ هِمّته بما وراء العرش لناله**

وبعد ثوان خاطبتها قائلة ما أتذكّره بمعناه لا بلفظه دون أن تحدّد على ما تقتضيه اللُّغة الانجليزيّة جنس المخاطَب: "معك حقّ إنّه لأمر مقرف أن نجلس مع أناس متبجّحين لذلك يوجد مقعد شاغر في الأمكنة المخصّصة للناس الراقين". انفرجت أسارير المرأة وافترّ ثغرها عن ابتسامة رضا وهمّت بالذهاب إلى ذاك المقعد الشاغر. ولكنّ المضيفة فاجأتها بأنّ العرض موجّه إلى الرجل الأسود الذي لم ترض السيدة البيضاء أن تجلس إلى جانبه.

كانت لقطة ذكيّة استُخدمت فيها تقنيّات سينمائيّة ناجعة في

علاوة على هذا التنوّع بين الجماعات يوجد تنوّع الهويّات الفرديّة في عالم الحداثة الذي أصبح قائمًا على الفرد واختياراته

التعبير عن التبجّح والأفكار السلبيّة، ولكن أهمّ ما فيها هو هذا القلب للمواقف على نحو مفاجئ للمرأة التي تتبنّى أفكارًا عنصريّة وللمشاهد أيضًا.

هكذا إذن تمثّل الطّائرة استعارة عن عالم مُصغّر يكشف جوانب كثيرة ممّا نعرفه في عالمنا الأكبر. وتاريخ البشريّة يقوم شاهدًا على أنّنا في رحلة مُستمرّة مِن مطار إلى آخر نجد فيها أنفسنا نعايش التنوّع في الأديان والأعراق والألوان والأجناس .. والأفكار كذلك.

علاوة على هذا التنوّع بين الجماعات يوجد تنوّع الهويّات الفرديّة في عالم الحداثة الذي أصبح قائمًا على الفرد واختياراته. فأضحى التنوّع مركبًا يستدعي قدرات ومهارات لدى الأفراد والجماعات بها يتعلّمون احترام الآخر على نحو مُستمرّ بما ييسّر لهم إضفاء الكثير من النسبيّة على ما ورثوه من قيم وعادات ورموز وتقاليد وتصوّرات إلى الإنسان والإله والكون. فهم محكومون في ذلك بإيجاد التوازن الدقيق بين تفتّح شخصيّتهم والانسجام مع الغير. فلا سلم ولا تفاهم في عالمنا المعولَم بثقافاته المتنوّعة إلا بتوفّر هذه الاستعداد أوّلًا وإتقان مهارات التواصل العابر للثقافات ثانيًا.

Video vom portugiesischen Komitee anlässlich des 50. Jahrestages der allgemeinen Erklärung der Menschenrechte unter dem folgenden Link:
http://www.upworthy.com/a-15-year-old-ad-about-racism-is-a-great-reminder-of-the-power-we-all-have-to-promote-justice.

الدّكتور حمَد بِن عُبد العزيز الكواريّ

وزير دولة فِي قطر بِرتبة نائب رئيس وزراء، وهو حاليًا رئيس مَكتبة قطر الوطنيّة. ليسانس فِي الدّراسات العربيّة والإسلاميّة مِن جامعة القاهرة – كلية دار العلوم، دبلوم دراسات عليا مِن الجامعة اليّسوعيّة، بيروت، ماجستير فِي الفلسفة السّيّاسيّة مِن جامعة السُوربون، باريس، دكتوراه في العلوم السّيّاسيّة مِن جَامعة ولاية نيويورك (ستوني بروك).

بدأ مَسيرتهُ المهنيّة ما بين ١٩٧٢ و ١٩٧٤ فِي المجال الدُبلوماسيّ فِي لبنان بِمنصب القائم بالأعمال. ومن ثمّة عُيّن سفيرًا لقطر فِي سوريّة (١٩٧٤–١٩٧٩)، ثُمَّ فِي فرنسا (١٩٧٩–١٩٨٤). وقد شغل خلال هذه الفترة منصب السّفير غير المُقيم لدى اليونان، وإيطاليا، وإسبانيا، وسويسرا. ثمّ أصبح مِن ١٩٨٤ إلى حدود ١٩٩٠ مندوب دولة قطر لدى مُنظمة الأمم المُتحدة، وكان فِي الفترة نفسها سفيرًا غير مُقيم لدى الأرجنتين، والبرازيل، وكندا. في سنة ١٩٩٠ عيّنته دولة قطر سفيرًا لدى الولايات المُتحدة الأمريكيّة إلى حدود سنة ١٩٩٢، وسفيرًا غير مُقيم لدى المكسيك وفنزويلا. كما تقلّد الدّكتور الكواريّ مَنصب وزير الثّقافة، والفنون، والتّراث (٢٠٠٨–٢٠١٦)، وقد رشّحتهُ دولة قطر لِمنصب المُدير العام لليونسكو سنة ٢٠١٧ واحتلّ المرتبة الأولى بعدد الأصوات خلال أربع جولات ثمّ حصل فِي الجولة الأخيرة على ٢٨ صوت مقابل ٣٠ صوتًا للمُنافسةِ الفرنسيّة.

الوطن في القرآن

كريستيان كيللينغ *

إنّ مفهوم "الوطن" في السيّاق الحديث مُتعدّد الأوجه. فكلّ اِمرئ يُحدّد مفهومه للوطن بشكلٍ مُختلفٍ؛ فالبعض يربط الوطن بالمكان الّذي يشعر فيه براحةٍ أكبر، والبعض الآخر بمكان الولادة، أو مكان سنوات الطّفولة والعائلة أو مكان الإقامة الحاليّة. وهناك من يضع حدود الوطن في منطقةٍ تكون لِمجموع النّاس وفيها أرضيّة مُشتركة، كاللّغة والثّقافة والتّاريخ، أو مفهوم القوميّة الأحدث بينها نسبيّاً.

وكذلك يشترك سُكّان العالم العربيّ– الإسلاميّ في هكذا مُقاربات لتحديد معنى "الوطن". ولكن كيف يمكن أن نفهم الوطن في السيّاق القرآني؟

وبصرف النظر عن حقيقة أنّ محور الرسالة القرآنيّة له طابع أخرويّ، وأنها تضع نصب الأعين التركيز على الآخرة اللانهائيّة الموعودة، فإنّ القرآن يسم الحياة الدُّنيا أيضًا بدلالةٍ مُهمّة، إذ يوجدهناك بعض الواجبات الّتي يجب على كلّ مؤمنٍ تأديتها خلال حياته الأرضيّة ولا يتوجّب إهمالها؛ (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) سورة القصص، الآية ٧٧.

ولا يوجد في القرآن آيات تُبرّر أو تدعو النّاس إلى الارتباط بمنطقة جغرافيّة على أساس اللّغة أو العرق، وبالتالي، لا يوجد في المفهوم القرآني عرق أو لُغة مُتفوّقان على اللُّغاتِ والأعراق الأخرى. والعكس من ذلك، فإنّ القرآن يؤكّد على أنّ التقوى أو خشية الله هي الفضيلة المُثلى وأنّ الله خلق الشُّعوب المُتعدّدة بلغاتٍ مُختلفةٍ وألوان بشرة مختلفة ليتعارفوا، كما جاء في سورة الحجرات، الآية ١٣: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أو في سورة الروم، الآية ٢٢: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ).

وتلعب الأحلاف الوثيقة والضيّقة، مثل حلف الأسرة، دورًا ثانويًّا فِي المفهوم القرآنيّ، فعلى سبيل المثال أدار النّبيّ إبراهيم ظهره لأبيه بعد أن تأجّج بينهما تباين دينيّ لم يمكن التصول فيه إلى حلّ، كما جاء في الآيات ٤٦–٤٩ من سورة مريم: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)، وكذلك الآية ٣٢ من سورة التوبة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

يذكر القرآن في (سورة ابراهيم الآية ٤)، أنّ الله بعثَ رُسله إلى شُعوب مُختلفة، وكلّ رسول يتحدّث بلغةِ النّاس الّذين أُرسِل إليهم: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). ومع ذلك كانت مهمّة المرسَلين دائمًا إيصال الرّسالة نفسها، أي الدّعوة إلى التّوحيد وعبادة الله الواحد الأحد (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ – آل عمران ٣: ١٤٤) و(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ – المائدة ٥:١١٧).

مِن هنا يمكن الإستنتاج أنّه على الرغم من اِختلاف اللُّغات والشُّعوب، فإنّ الرّسالة ظلّت كما هي، ممّا يضع التركيز الأساسيّ على الرسالة بعينها. وفي نهاية المطاف فإنّ القرآن، على المستوى الشامل، يُصنّف النّاس إلى معسكرين، معسكر الذين آمنوا بالله ومعسكر الذين كفروا به. وبناءً عليه، يقوم المجتمع في القرآن على أساس واحد، وهو أساس الاعتقاد الدينيّ، وفي هذا المجتمع بالذات يتكفّل المؤمنون بدور الأولياء، والرعاة، والحماة، لبعضهم البعض، كما تؤكّد عليه سورة الأنفال في الآية ٧٢ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أو سورة المائدة في الآية ٥٥: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ).

بهذه الوحدة الدينيّة يرتبط مفهوم الهجرة ارتباطًا وثيقًا، فبعد إخراج النبيّ محمّد (ص)، مِن مكّة وهجرته إلى المدينة، تمّت

لا يوجد في القرآن آيات تُبرّر أو تدعو النّاس إلى الارتباط بمنطقة جغرافيّة على أساس اللّغة أو العرق

فإذا جاء رسولهم
قضي بينهم بالقسط
وهم لا يظلمون
ويقولون متى هذا
الوعد إن كنتم

دعوة المؤمنين إلى اتّباع هذا السبيل (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر ٥٩: ٩). فإن تعذّر على المؤمنين مُمارسة شعائرهم الدينيّة بسلام، تُصبح الهجرة واجبًا عليهم، كما تنصّ عليه سورة النساء في الآيات ٩٧-١٠٠: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا. إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا. وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا).

يعدّ مفهوم الهجرة في القرآن من الأمور المهمّة جدًّا، إذ إنّ حماية المؤمنين المهاجرين من قبل المؤمنين غير المهاجرين لا تكون فرضًا إلا في حالة الاضطهاد الدينيّ، كما جاء في سورة الأنفال الآية ٧٢: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). والقرآن يدعو إلى الدفاع عن النفس ضدّ المعتدي في حالة تعرّض مكان الجماعة الدينيّة للخطر (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ – البقرة ٢: ١٩٠).

إنّ السؤال المهمّ الذي يطرح نفسه في الواقع يتلخّص فيما إذا كان وطن هذه الجماعة الدينيّة المتماسكة مرتبطًا بمنطقة جغرافية معيّنة. من حيث المبدأ، لا يوجد مكان محدّد يُفترض أن تلتقي فيه هذه الجماعة الدينيّة، فالأرض برُمّتها تمّ وصفها، كما في سورة غافر ٤٠: ٦٤ على أنّها "قرار" أي المستقرّ الثابت، وبذلك يمكن للجماعة الدينيّة أن تتمركز في أيّ مكان وتشيّد أيضًا دُور عبادتها وتؤدّي واجباتها الدينيّة فيه (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ – سورة الأعراف ٧: ٢٩).

وعلى الرّغم من ذلك، تبقى الجماعة الدينيّة مُرتبطة إلى حدٍّ ما بِمنطقة جغرافيّة. هذه المنطقة يمكن العثور عليها في السياق القرآنيّ في الحرم الشريف في مكّة. لهذا السبب كانت مهمّة النبيّ محمّد والمؤمنين استعادة هذا الحرم بعد طردهم منه (لَقَدْ

يعدّ مفهوم الهجرة في القرآن من الأمور المهمّة جدّاً، إذ إنّ حماية المؤمنين المهاجرين من قبل المؤمنين غير المهاجرين لا تكون فرضاً إلا في حالة الاضطهاد الدينيّ

صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا – سورة الفتح ٤٨: ٢٧).

ويمكن إرجاع أهميّة هذا الحرم المُكعّب الشّكل إلى حقيقة تشييده، وفقًا للمفهوم القرآنيّ، مِن قبل النبيّ إبراهيم، أبي الديانات التّوحيديّة (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ – سورة البقرة ٢: ١٢٧).

يمكن تشبيه الحرم الشّريف فِي مكّة بِالمسكن أي خيمة الشّهادة، وهيكل سليمان على الجبل في القدس في العهد القديم، مِن حيث إنّها جميعًا بِمثابة بيت رمزيّ لله يتخذه مجازيًّا منزلاً له وسط الجماعة الدينيّة. وإذا اعتبرنا أنّ القرآن تكملة واستمرار للعهدين القديم والجديد؛ فستصبح هذه الأهميّة المشتركة للبيت المقدّس باعتباره ممثّلا لبيت الله أكثر قابليّة للفهم.

وباختصار، فإنّ مفهوم الوطن فِي القرآن هو مكان التقاء الجماعة الدّينيّة، ويجب الذود عنه أيضًا في المِحن، غير أنّ هذا الوطن لا ينفصل أيضًا عن هذا الحرم الرئيس المقدّس ومكان الحجّ. إلا أنّ ذلك لا يمنع هذه الجماعة الدّينيّة مِن الاستقرار في مكان آخر، ولكن يبقى ظاهرًا الواجب على المؤمنين حماية هذا الحرم المقدّس وإبقائه تحت سيطرتهم.

كريستيان كيللينغ

مواليد دوسلدورف عام ١٩٩٧، حاليًا مُدرّس للّغة العربيّة في جامعة بون. شهادة في إختصاص لُغات وثقافات العالم الإسلاميّ من جامعة كولونيا. شهادة دراسات عليا في اللّغات الشّرقيّة والآسيويّة – تخصّص لُغة عربيّة وترجمة من جامعة بون. يتمحّور عمله العلميّ حول تصنيف اللّغة العربيّة داخل اللّغات السّاميّة.

مفهوم الوطن شعرياً, ما بين الأدباء العرب والصينين

الكاتب ليو نا *

في عام ١٩٨٨، فاز الأديب العربيّ الكبير، نجيب محفوظ، بجائزة نوبل للآداب، وكان من بين المشاركين في حفل تسليم الجائزة الكاتب الصيني ليو زايفو (Liu Zaifu)، وهو أوّل كاتب صينيّ تتمّ دعوته لحضور حفل تسليم جائزة نوبل في الأدب.

وأعتقد أنه ليس من المناسب أن نتكلّم عن أدب المهجر الصّينيّ المُعاصر دون التطرّق إلى الكاتب ليو زايفو، الّذي يعيش في أمريكا منذ ١٩٩٨م، ومن البديهي أنّ معظم أعمال هذا الكاتب حاولت تحديد ماهية الوطن؛ فالوطن لديه ليس بُقعة في الخريطة، بل هي بمثابة محيطات الحياة التي لا ضفاف لها، حيث تترعرع كلّ الأفكار، والآراء، والمعتقدات، والمشاعر بحريةٍ مُطلقةٍ، وبكلامٍ آخر، فإنّ الوطن الّذي يتوقُ إليه الكاتب ليو زايفو عبارة عن ملكوت الروح الّذي كان الفيلسوف الصّينيّ تشوانغ تسي (Chuang-tzu)، يُكرس حياته لبلوغهِ، وكان تشوانغ تسي أول فيلسوف صينيّ طرح مسألة "الحرية الرّوحيّة" دون عبوديّة.

في دراستي حول الأدب العربيّ الحديث في أوروبا التي أنهيتها في عام ٢٠٢٠ لاحظتُ أنّ مفهوم الوطن في أدب المهجر العربي الحديث يشبه إلى حدّ كبير مفهوم الوطن عند الكاتب ليو زايفو. وبصرف النظر عن بلد المنشأ للشعراء الذين قمت بدراسة نتاجهم الأدبيّ – من لبنان أم العراق أم سوريّة– فإنّ إشكاليّة الوطن فِي الغربةِ مُتشابهة لديهم في إشكالياتها، فنجد مثلًا الشاعر اللّبنانيّ كرم سرجون يقول في قصيدته المعنونة بـ "غربة الدايم دايم":

"أريد الموت خارج هذه الأرض، في مكان لستُ ضيفًا عليه [..] لا قبر لي في هذه الأرض، أبني فيه فُلكًا من خشب الهيكل، وآخذ معي من كلّ جنس أنثاه".

وهنا نجد أنّ الشّاعر، قد وظفَ –شعريًّا– الرّمز الدّينيّ للنبي نوح فِي "ملحمة الطُّوفان"، فاعتبر نفسه بمثابة الأب المؤسس لعالم جديد يُشكّله وفق خريطته الشعرية ليرسم معالم موطنه الرّوحيّ، الّذي سيعوض –جماليًا– النّشوه الّذي اعترى مَوطنه الواقعيّ المحدد جغرافيًا، والذي تغرَّبَ عنهُ أو غُرِّبَ عنه!

كما نجده كذلك في قصيدته الأخرى "الطّائر الّذي نجا مِن الحرب"، يبيّن لنا مفهومه للوطن على نحو مباشر من خلال

قوله:

"هذه الحرب انتهتْ. كلّهم ماتوا. مَدّ طائر عُنقه مِن قفص الكلام وصاح: بلادِي حيث يكون أهلي. لغةً لا حيث تكون أرضٌ".

منذ الأزل إلى الأبد، تجري دماء التمرّد في شرايين المثقفين والأدباء المهاجرين، الأمر الذي في غالب الأحيان يجعلهم منشقين أو هرطوقيين مضطرين إلى مغادرة أوطانهم. هنا أودّ أن أذكر الشّاعر الصّينيّ "بي داو"، الّذي يُعدّ بمثابة الضمير الشّعريّ للمنشقين الصّينيين في الدّوائر الأدبيّة لأكثر من عشرين عامًا. هذا الشّاعر القادم مِن شمال الصّين يعشق العُزلة عِشقًا جُنونيًا، لذلك اختار لنفسه اِسمًا مُستعارًا أي "بي داو"، والّذي يعني "الجزيرة الشمالية" في اللّغة الصّينيّة. ولا يزال "بي داو" يعيش فِي المنفى، والوطن في رؤيته بمثابة اللغة المحكية لقومه في مسقط رأسه، فيقول في إحدى قصائده: "أنا أتحدّث الصينية في المرآة. الحديقة لها فصل الشتاء الخاص

بها. أشغل الموسيقى. لا ذباب في الشتاء. أترك القهوة تغلي على مهل. الذباب لا يفهم ما هو الوطن. أضفتُ القليل من السكر. الوطن هو اللهجة الدارجة. وأنا على الطرف الآخر من خط الهاتف. سمعتُ خوفي".

فِي تاريخ الشّعر الصّينيّ الحديث هناك شاعر آخر إلى جانب "بي داو"، أولى كذلك اِهتمامًا بالغًا للّهجةِ الدّارجةِ فِي مَسقطِ رأسهِ، وهو (Ya Xian)، الشّاعر التّايوانيّ المولود فِي مُقاطعة "خنان" الصّينيّة، عام ١٩٣٣م، وعندما بلغ السّابعة عشر مِن عُمره، لجأ مع الجيش التّابع للحزبِ القوميّ الصّينيّ إلى تايوان لكونهِ عسكريًا ومِن دون أن يعرف أنّ هذا الإنسحاب العسكريّ هو بمثابة الوداع الأخير لأهله ووطنه. وفي المعسكر في تايوان كان دائمًا يعزف على "إرهو"، وهي آلة موسيقيّة صينيّة تقليديّة ذات خيطين مُقوستين للتغلب عِلى الحنين إلى الوطن والأهل.

وترسّخ صوت إرهو المبحوح في ذاكرة الشّاعر حتّى أطلق على نفسه اسم (Ya Xian) والّذي يعني في الصّينيّة "أوتار مبحوحة". وحقيقة الأمر، فإنّ "أوتار مبحوحة" خلق لنا أجمل ألحان الغربة، من مثل قوله: "تلك المرأة، وراء ظهرها تهتزّ شوارع فلورنسا، قادمة صوبي مثل تورتريت، إذا قبّلتُ شفتيها، ستلتصق صبغة رافائيل، بشاربي في بلاد الغربة".

ولو أنك تصفحتَ دواوين الشاعر ستجد بكل سهولة أنّ لغته شعرية فريدة وتستوطن فيها روعة اللهجة الدارجة الخاصة بأهل مقاطعة خنان الصينية.

وعندما يصبح الأدب والثقافة التقليدية وطنًا وهويةً، نجد الشاعر العراقي عدنان صايغ، يقول: "أنا شاعرٌ جوّاب. يدي في جيوبي. ووسادتي الأرصفة. وطني القصيدة. ودموعي تفرس التاريخَ".

وكذلك نجد الأديب الألماني توماس مان (Thomas Mann)، يزعم: "أنّ ألمانيا هي حيث أقف أنا". ولا ريب أنّ كلامه هذا كان وما زال يثير صدى في قلوب الكثير من المثقفين في

> **منذ الأزل إلى الأبد، تجري دماء التمرّد في شرايين المثقفين والأدباء المهاجرين، الأمر الذي في غالب الأحيان يجعلهم منشقين أو هرطوقيين مضطرين إلى مغادرة أوطانهم**

العالم بأسره وبينهم المؤرّخ الصيني الأمريكي الكبير يو ينغشي (Yu Ying-shih)، الذي كان يقول: "إنّ الصين هي حيث أقف أنا". هنا أودّ أن أشير إلى الشّاعر السوري أحمد إسكندر سليمان المقيم في مدينة روستوك، والذي نعت نفسه: "الحبر الضال في أنحاء سوريا". ونحن نعرف أنه ما زال ينام كل ليلة على شاطئ المتوسط ليستيقظ على شاطئ البلطيق، غير أنّ الوطن عنده، حسب قراءتي المحدودة لأعماله، ليس سورية جغرافيًا، بل الثقافة السوريّة القديمة التي أبهرت البشرية كلّها. وتتبلور ملاحظتي هذه في القصيدة التالية: "لأنك فينيقي، لن تجد غير البحار. لن تشعر بغير الهواء، وهو يملأ الأشرعة. بحثًا عن سورية المقدّسة. الوطن الذي لا ظلّ فيه. الوطن الذي لن يصل إليه الرّعاة. وحيث المعنى امتداد، على وجه المياه."

د. ليو نا (Lyu Na)

مولودة في مُقاطعة "هوبي" في الصّين عام ١٩٨٩، وهي أستاذة اللُّغة العربيّة فِي كلية اللُّغات الأجنبيّة في جامعة "صان يات سان" (Sun Yat-sen University) الصّينية. أنهت اللّيسانس في اللّغة الإنجليزيّة في جامعة صان يات سان، واللّغة العربيّة كلغة أجنبيّة ثانية. تابعت دراسة اللّغة العربيّة بجامعة دمشق، وماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها في جامعة شنغهاي للدراسات الد ولية بعنوان "ملامح القوميّة العربيّة في شعر نزار قباني". وعملت أستاذة للغة الصّينية في معهد كونفوشيوس بالدار البيضاء. وحصلتْ على دكتوراة في اللّغة العربيّة وآدابها من جامعة شنغهاي للدراسات الدولية بعنوان "دراسة في أدب المهجر المعاصر في الشّتات: الشّعراء العرب المهاجرون في أوروبا وأعمالهم الشّعريّة أنموذجًا. مُترجمة من العربيّة إلى الصينيّة: ترجمت رواية "ساق البامبو"، وبعض الأعمال الأدبيّة لأمين الرّيحانيّ ونزار قباني مِن اللُّغة العربيّة إلى اللّغة الصّينية بالتعاون مع البروفيسور تساى ويليانغ، رئيس سابق لجمعية دراسة الأدب العربيّ في الصّين، وديوان الشّاعر اللّبناني الألمانيّ سرجون كرم "قصب الصّمت" – تايوان ٢٠٢٠م.

الوطنُ الحلمُ

ريم نجميّ *

لديّ حُلمٌ يتكرر دائمًا:

أنْ أستيقظ فِي الصّباحِ وأذهب إلى عملي في حي "فيدينغ"، في برلين، وأعود في المساء إلى بيتنا في الرباط!

أحيانًا يتسعُ هذا الحلم لخيالات طُفوليّة، كأن أحصل على المقص السّحريّ الكبير الّذي سيقطع الجبال والسهول والهضاب والبحر المتوسط من خارطةِ العالم. ثمّ أخيط خريطةً تجمع بين برلين والرباط لتصبحا مدينة واحدة، حيث يمكن لأصدقاء طفولتي ودراستي المغاربة العيش مع أصدقائي وزملائي الألمان. بعد العمل، أتصل بصديقتي حليمة لنلتقي، وفي اليوم التالي ألتقي بـ "يوليا" صديقتي الألمانيّة العزيزة.

أشتري فِي الصّباح "بروتشن" مِن مَخبزة مَحطة "غرايفسفالدر شتراسه" في برلين، وفي المساء، وأنا عائدة إلى بيتنا في حسّان الرّباط، أتوقف عند المحلبة لأشتري "المسمن" الذي خبزته السيدة للتو.

إنّ هذا الوطن حيث تتداخل روائح المغرب وروائح ألمانيا، هو الوطن الذي أحلم بالعيش فيه. إنه وطنيّ الذي لم يتحقق بعد. أحتمي من برودة الشتاء الألمانيّ، بشتاء الرباط اللطيف، وأهرب من حرارة المغرب في الصّيف لأستظل بأشجار حديقة "تريبتو" في برلين. وطنٌ تتداخلُ فيه اللّغتان العربية والألمانية، فكلّما هربتْ مِن لسانيّ كلمةٌ ألمانيّةٌ فِي لحظةٍ مَا (وهو ما أعايشه باستمرار)، أقولها بالعربيّة فيفهمني المُتحدَّث إليه الألمانيّ.

أستطيع أن آخذ طفليّ إلى جدَّيْهم كلّ نهاية أسبوع ليتعلما لغتهم الأمّ، هما اللذان يفهمان العربيّة ولا يستطيعان التّحدث بها. هناك أيضًا ستمنحني أمّي "الطّواجن"، الّتي طبختها لي وحساء "الحريرة"، وسأحملهما في كيس وأعود بهما بقطار –"الإس بان"– إلى بيتنا في "برينسلاور بيرغ".

إنّ المقص السّحريّ الّذي سَيشطر الخريطة نصفين، هو نفسه المقص الّذي سيَجمَعنُي لأصبح واحدة مُكتملة: مغربيّة بِثقافةٍ ألمانيةٍ وألمانيةٍ بِخلفيّةٍ مَغربيّةٍ. لن أتألم مُجددًا فِي المَطار وأنا أغادر الرّباط باتجاه برلين، تاركةً جُذوريّ وذكرياتي وأهليّ ولن أتألم كذلك وأنا أترك بيتي فِي برلين، حيث كُتبيّ وأغراضيّ وحياتيّ اليّوميّة المُريحة الجميلة.

أحيانًا، ومِن قوة الحُلم أتصوّر أنّي سأستيقظُ فِي يومٍ وقد نبت لي جناحان، وهكذا سأستطيع أن أُحلّق بين سمائين وأرضين، وحبِّ وطنٍ واحد.

ريم نجمي

شاعرة، وكاتبة مغربيّة، من مواليد الدّار البيضاء ١٩٨٧م، مُقيمة في برلين، وتعمل في الصّحافة.

صَدرتْ لها ثلاث مجموعات شعريّة: "أزرق سماويّ"، "كأنّ قلبي يوم أحد"، "كن بريئًا كذئب". كما صدرت لها سنة ٢٠٢٢ م، رواية "تشريح الرغبة"، ولديها عدد من الإصدارات في مجال الترجمة.

وطن الشّاعر

سيف الرحبي – عُمَان *

قلتُ لِصديقٍ ذات مرةٍ ما إنْ أصلُ إلى بلادٍ حتّى أقول هذا هو الوطن النّهائيّ، لكنْ ما إن تنقضي الأيامُ التي لا تصل إلى أشهر إلا بحبلٍ واهنٍ من الضجر والغثيان، أغادر إلى بلاد أخرى.. وهكذا انقضى العمر بحثًا عن الوطن والمكان.

لطالما تحدثوا عن وطن الشاعر، وعن علاقته بوطنه بمجتمعه وتاريخه. حبرٌ كثيرٌ سالَ في هذا السياق ومن منطلقات مختلفة ومتناقضة. وما زال السِّجال وإن خَفَتَ قائمًا وبمردود ثقافي ضئيل ومتواضع. الشاعر يكتب ويواصل الكتابة من غير أن ينطلق أو يفكر بمُسبقاتٍ معرفيّةٍ في هذه العلاقة المُلتبسة دائمًا لدى الشُّعراء، والكُتّاب الحقيقيين. وطن الشّاعر في ظني ليس تلك المساحة الجغرافيّة المُتعينة المُحددة في ركنٍ ما من أركان هذا العالم فحسب، بل هو قيدُ التّشكّلِ والبحثِ دائمًا. وطنٌ حُلميٌّ موضِعُه اللُّغة والكلماتُ الّتي تحتوي بالضرورة الوقائعَ والتّاريخ، الأحلامَ والهلوسات، الهوامشَ والمتون، ويسرح في فضائها الحلمُ بالعدالة والحرية المفقودتين خاصة في العالم الشّرقيّ والعربيّ الّذي تختلف هواجسُه وأحلامه أحايين كثيرة وجوهريةً، وأولوياته الحياتية والإنسانيّة عن نظيره الأوروبيّ.

وطن الشّاعر، هو حريته في التّعبير عن حلم الحرية، والجمال، والكرامة، فإذا فقدها فِي بلده الأصلي يكون الوطن هو الحريّة، وفضاءاتها الشّاسعة في أيّ بقعة من هذه المعمورة التي أخذ أبناؤها المتحضرون والمتخلفون على السواء، بتخريبها،

وتدميرها، لتتحوّل مِن عُمْرَانٍ وحضارةٍ وأحلامٍ بمستقبلٍ أفضلَ وأجمل، إلى أرضٍ يَبابٍ وفْقَ الرؤية "الإليوتية"، وغيرها الكثير، جَرّاءَ الصراعات المُفضيّة إلى الحروب الطاحنة والجشع الرأسماليّ الّذي لا حدود له، وفي بلدان أخرى غياب الدّساتير والقوانين المُلزمة وغياب المعايير كافة، أي تلك الدكتاتوريات الشّموليّة المُطلقة.

يقفُ الشاعر كشاهدٍ حقيقيٍّ على هذا الخراب مُعبرًا، يُطلق صَرخةَ اِحتجاجِهِ المدوّية في وجهِ قُبحِ هذا العالم، وفي صدقِ هذا التّعبير ثَمّة حلمٌ بوطنٍ ومستقبلٍ أكثرَ جمالاً وحريةً وعدالة.

وكما يقول الشاعر مُحمد الماغوط: "وطني بعيد ومنفاي بعيد".

وطن الشّاعر، هو حريته في التّعبير عن حلم الحرية، والجمال، والكرامة، فإذا فقدها فِي بلده الأصلي يكون الوطن هو الحريّة، وفضاءاتها الشّاسعة في أيّ بقعة من هذه المعمورة

سيف الرّحبي

شاعر، وكاتب عمّانيّ، ورئيس تحرير مَجلة نزوى الثّقافيّة الفصليّة، الّتي تصدر في مَسقط. درس فِي القاهرة وعاش في أكثر من بلد عربيّ وأوروبيّ، عمل في المجالات الصّحافيّة العربيّة. تُرجمتْ مُختارات مِن أعماله الأدبيّة إلى العديد من اللّغات العالميّة كالإنجليزيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، والهولنديّة، والبولنديّة.

من أعماله: نورسة الجنوب (دمشق ١٩٨٠)، الجبل الأخضر، شعر (دمشق ١٩٨١)، أجراس القطيعة، شعر (باريس ١٩٨٤)، رأس المسافر، شعر (الدار البيضاء، ١٩٨٦)، ذاكرة الشتات مقالات (اتحاد كتاب وأدباء الإمارات – الشارقة، ١٩٩٢)، مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور، رجل من الربع الخالي، مقاطع من سيرة طفل عماني.

مسرح الأخوين رحباني: وطن الأغنية ووطن الواقع

د. غوى سعادة *

لا شكّ فِي أنّ كلّ مَنْ تابع مَسرحيات الأخوَيْن رحباني، عاصي (١٩٢٣ – ١٩٨٦)، ومنصور (١٩٢٥ – ٢٠٠٩)، والفنانة فيروز (١٩٣٤)، وأحيانًا الفنانة صباح (١٩٢٧ – ٢٠١٤)، قد لاحظ أنّ فكرة الوطن، بمستوياتها المختلفة، قد شكّلتْ الركيزة الأساسيّة فِي أعمالهما معًا، والّتي امتدت على الخشبة مِن العام ١٩٥٧ إلى العام ١٩٨٤. عملهما المسرحيّ الأول جاء على شكل لوحات غنائيّة وكان عنوانه "لوحات وتقاليد"، وقُدِّم في بعلبك. عملهما المشترك الأخير حمل اسم "الربيع السّابع"، وجرى تقديمه على مسرح جورج الخامس في أدونيس(شمال بيروت).

هذه المَسيرة الفنيّة الغنيّة الّتي شملت ما يربو على العشرين عملًا –ما بين «أوبريت» غنائيّة، ومسرحيّة شبه متكاملة المواصفات الفنيّة– هي العمود الفقري للتراث الرحباني الواسع الإنتشار في لبنان وفي العالم العربي، مع ما بين هذا التراث من تفاوت في التوجّه ناجم، مِن دون أدنى شك، من اكتسابهما، بعد كل عمل، المزيد من الخبرة والثقافة، والنضج، والثقة الفنيّة بالنفْس. وقد وصلا، بفضل نجاحاتهما الشعبيّة الواسعة وبفضل نجوميّة السيّدة فيروز، إلى مرحلة شكّل فيها مسرحهما حالة تشُبه الوجدان الشعبي، ليس في لبنان وحده ولكن كذلك في معظم أقطار العالم العربي.

وصورة الوطن في المسرح الرّحباني، لاسيما في البدايات، هي صورة بسيطة للغاية، وهي كذلك مثاليّة إلى حدود بعيدة بحيث اعتبرها كثيرون بأنها مجرّد وهم جميل لا يمكن أن نشهد له ترجمة فعلية على أرض الواقع.

فالوطن عندهما، تلك المرحلة، هو القرية البريئة، كي لا نقول البدائيّة. صحيح أن أبناء القرية يتشاحنون ويتقاتلون، ولكن الحل يأتي دائمًا على يد شخصيّة أبويّة يرتضي معظم أبناء القرية حكمها. وقوام هذا الحل يرتكز على المحبّة والإنفتاح والتسامح الرومانسي: «القمرْ بيضوّي عَ الناس/ والناس بيتقاتلو/ عَ مزْارع الأرض الناس/ عَ حجْار بيتقاتلو/ نحنا ما عنّا حجرْ/ لا مزْارع ولا شجرْ/ انتي وأنا يا حبيبي/ بيكفّينا ضو القمرْ/. لذلك فإن نهاية كل المشاكل في هذا الوطن/ القرية،

تقوم دائمًا على مقاربات متفائلة ومثاليّة، أي يوتوبيّة وهميّة: «ديرو الميّ ديرو الميْ/ خللي يشربْ كل الحيْ/ خللي تشربْ كل الدنيي/ ويعْلى الزرْع ويحلى الفيْ/»

بالتأكيد لم يكنْ واقع الوطن اللبناني – ولا أي وطن آخر في العالم – بمثل هذه الطوباويّة، لكن علينا أن نعرف، وأن نعترف بذلك، أن وطن الأغنية شيء ووطن الواقع شيء آخر مختلف تمامًا.

والوطن الفولكلوري، عند رحابنة المرحلة الأولى، هو وطن التبادل التجاري والزراعي بين الناس حينًا، وبين الدول حينًا آخر. وفي هذا تجسيد واضح لصورة الفينيقي الشاطر الراسخة في ذهن العديد من اللبنانيين، وهو الذي تُنْسَب إليه أمور جلل ، ليس أقلها اختراع الأبجديّة وتعليم العالم القديم كله وصناعة السفن التي جابتْ العالم القديم بأسره:

«بدْنا نتاجرْ/ ناخدْ ونعطي/ نْسَفّرْ مراكبْنا عَ كل شط بهالدني/ وبكل شط بهالدني/ تنزلْ مراكبنا/»، وإذا بالإزدهار الناتج عن تلك التجارة البحريّة الناشطة يحمل في كلّ يوم المزيد من الثروات والبحبوحة لأبناء هذا الوطن: «مراكبْنا تروح وترجعْ/ تشْحن بضايعْ وترجعْ/ صار عنّا أسطول تجاري/ بدّو يقْطَعْ المصاري/».

ومن ملامح طوباويّة الصورة الخاصة بالوطن الرحباني أن يكون هناك تكامل وتعاون بين السلطة القويّة والفنون الشعبيّة ليكتمل حضور الوطن المزدهر والمستقِر: «أنا بسيفي بحرّرْ هَ المناطق/ وبحقّقْ لبنان/ وانتِ بالغنيّي بتخلّيلو اسمو/ يزهّرْ وينْ ما كان»/». هكذا يفاخر المواطن، في المفهوم المسرحي الرحباني، تلك المرحلة، بوطنه الكامل الأوصاف والمسْتوْفي كلّ شروط الأوطان: «القوي لبنان/ الغني لبنان/ الهنا والجنا/ بسما لبنان/».

وعشق الوطن عشقًا رومانسيًّا خالصًا ومتفانيًا هو جزء لا يتجزّأ من مفهوم وطن الأغنية الرحبانيّة في تلك المرحلة: «بنْذُرْ صوتي/ حياتي ومؤتي/ لمجد لبنان/». هكذا يتكرّس الوطن أبديًّا سرْمديًّا عاصيًا على كل تهديد أو خطر زوال: «واللي بدْنا نقولو قلناه/ إنّو لبنان كان وصار وبدّو يبقى/».

> **وعشق الوطن عشقاً رومانسيّاً خالصاً ومتفانياً هو جزء لا يتجزّأ من مفهوم وطن الأغنية الرحبانيّة في تلك المرحلة**

ووطن الأغنية الرحبانيّة، على صورة القرية ومثالها، منفتح على العالم وأبناؤه متحابّون متحاورون: «وما زال في جْسورا/ بها الأرض مشْرورا/ بدّن يضلّو الناس/ يجُو لَعند الناس/ وتْزورنا الدنْيي وتْزورا/». وهم مؤمنون بوطن له دورٌ أكبر من مساحته ومسالم: «يا زغير وبالحق كبير/ وما بيعْتدي/ يا بلدي/» و» بلاد بدها تتْقدم/ ما حدا بيردّا/(...) لا رحْ نتْعدّى عَ حدا/ ولا حدا عليْنا يتْعدّى/».

وكذلك وطن الأغنية محبوب دائمًا: «خدْني زرْعني بأرض لبنان»، وهي مَحبّة تشكّل جزءًا من التربية البيْتيّة التي ينادي بها الرحابنة بتعميمها على كلّ البيوت والعائلات. وخير مثال على ذلك وصيّة الأب لأبنته العروس قبل أن تؤسّس عائلتها

ووطن الأغنية الرحبانيّة، على صورة القرية ومثالها، منفتح على العالم وأبناؤه متحابّون متحاورون

الجديدة: «وربّي ولادِك عَ الرضى/ بالمحبّة والرضى/ بتزَّهر الأرض وهيْك/ بيشعْ الفضا/ وزْرَعيُنْ بالوعر أرز وسنديان/ وقوليلهنْ لبنان، بعد الله / يعْبدو لبنان/».

لكنّ هذا الوطن المعشوق في كلّ الظّروف لا يمكن أن تكون الحياة فيه نزهة جميلة دائمًا. لا بدّ من النّضال ليستحقّ المواطنون أن يعيشوا بحريّة وأمان واستقرار. لذلك هناك مُفترق حاسم في وطن الأغنية حدث في مسرحيّة «أيام فخر الدين»، عندما صرخ الأمير فخر الدين المَعني الثاني الكبير(١٥٧٢ – ١٦٣٥) في رجاله قائلًا: «بدْكُنْ الاستقلال؟/ اعتمْدو عَ الله / وعَ حالكنْ/خدوه بالقُوّي/ بيضربة السيف اللي بتْضوّي/»

قلتُ إنّ هذا الكلام شكّل المفترق، أو هو النقلة النوعيّة بين وطن الأغنية ووطن الواقع. وليس مُصادفة توزُّع المسرح الرحباني على ثلاث مراحل: من البداية إلى ما قبل «أيام فخر الدين» الّتي بدأ فيها التحوّل الحقيقي – مرحلة «الشخص» (١٩٦٨)، «جبال الصوّان» (١٩٦٩)، «يعيش يعيش» (١٩٧١)، «بترا» (١٩٧٧) – ومرحلة «المؤامرة مستمرّة» (١٩٨٠) ، و»الربيع السابع» (١٩٨٤)، وهي مرحلة الحرب الأهليّة اللبنانيّة التي غادر فيها الرحبانيان نهائيًا، واللبنانيون عموما، حياة الإسترخاء والطمأنينة ووهم الاستقرار وما كان يُعتَقَد أنه سلام دائم.

باختصار، فكرة الوطن الواقعي بدأت، انطلاقًا من المرحلة الثانية، تصبح ملموسة. طبعًا، وعلى عادة الرحبانييْن، ظلت الأغنية موجودة، بمعنى صورة الوطن الجميل، ولكن التركيز على الوطن الواقعي، مثله في هذا مثل بقية الأوطان، صار واضحًا أكثر. والنماذج على هذا المنحى الجديد كثيرة: «الدولة بدها تقبضْ/ يا بتقبضْ مِنْ الأهالي/ وبتْحسّنْ وضع الأهالي/ يا بذْها تقبض من برّا/ وتصير متْزلْمي لَ برّا/». وصارت المطالبة بالعدالة الاجتماعيّة ملحّة أكثر: «وكان في ولاد عمْ يلعبو بالشمس/ وتيابن مخزْقة/ الولاد بدّنْ يكبرو/ ما بيقدرو ينطرو تَ يصير في حكومي/» ، أو «لا تخافو/ ما في حبوس بتْساع كل الناس/ بيعْتقْلو كتيرْ/ بيبقى كتيرْ/ وبللي بيبقو رحْ منكمّلْ/».

من دون شك، غنائيّة المرحلة الأولى التي ولّدتْ وطن الأغنية المثالي، أخلتْ المكان، بدءًا من فجر المرحلة الثانية، أمام واقعيّة النضج الفكري التي أنتجتْ وطن الواقع. وأعتقد أن الأخويْن رحباني، ومعهم كلّ اللبنانيين، قد لمسوا لمْس اليد إن وطن الأغنية غير قابل للحياة إلا... في الخيال.

د. غوى سعادة

تحمل شهادة دكتوراة في طب الأسنان من جامعة القديس يوسف، بيروت.

تابعت تخصصها في معاهد ومستشفيات باريس في اختصاص طب الأسنان عند الأطفال وفي تقويم الأسنان. لها دراسات منشورة في مجلات علميّة. كما لها إهتمامات في الآداب الشّعبيّة وفي شؤون الصّحة والتغذية والبيئة. وقد نشرت مقالات في هذا المجال في أكثر من مجلة، ودوريّة.

تأملات في معنى 'الوطن' في الكتاب المقدس، ما بين فلسطين وإسرائيل، وربّما لنا جميعاً

د. فيليب سامبتر *

أودّ فيما يلي أن أقدّم بعض التّأملات الموجزة حول معنى "الوطن" – بالنّسبة لي وبصفتي مُتخصّصًا إنجليزيًّا في الكتاب المقدّس، وبالنسبة للعرب واليهود الذين عشت بينهم في الأراضي المُقدّسة، وبالنسبة للكتاب المقدّس نفسه، والّذي على ضوئه أقوم بشرح تجربتي وتجربة طرفي الصّراع الإسرائيليّ– الفلسطينيّ. سأبدأ من نفسي أوّلًا، على الرغم من أنّني لم أكن مدركًا للأمر دائمًا، إلا أنّ "الوطن" كان موضوعًا مهمًّا في حياتي، لأنّ لا جذور لي.

فبحكم عمل والدي، فقد نشأت في بلدان عديدة ولم أعش قطّ مع عائلتي في إنجلترا. لقد تعرفت إلى إنجلترا بشكلٍ أساسيٍّ مِن خلال المدرسة الدّاخليّة، حيث قضيت فيها ثمانية أعوام من حياتي. لم يكن بالإمكان أن أسّمي ذلك المكان "وطنًا". كانت تجربتي الأولى للانتماء لمكان صار بالنسبة لي وطنًا، عندما سَافرت فِي سنّ الثّامنة عشرة إلى الأراضي المُقدّسة، وعشت وعملت بين يهود علمانيّين (غير متديّنين)، بما في ذلك أطفال ضحايا محرقة الهولوكوست. خلال هذه الزيارة قادتني الرحلة أيضًا إلى مُجتمع مَسيحيّ فِي مَدينة مُختلطة بين اليهود والعرب. هناك لم أكتشف الوطن فحسب، بل اكتشفت الله بطريقة أعمق أيضًا. ومنذ ذلك الوقت، ظلت تلك الأرض والوطن والله مُتصلين مترابطين مَع بِعضهم البعض بالنسبةِ لي بِطريقةٍ أو بأخرى. والآن ننتقل إلى اليهود، فَبالنسبة إليهم، لطالما كانت إسرائيل والوطن والله دائمًا على ارتباط ببعضهم البعض، وإن كان ذلك بطريقة مختلفة. فالاعتقاد اليهوديّ التقليديّ هو أنّ الله قد منحهم أرض إسرائيل على أنّها المكان الوحيد الذي يمكن أن يسمّوه وطنًا حقيقيًّا ونهائيًّا. ولكنّهم على مَدى الألفي سنة الماضية عَاش مُعظم اليهود خارج أرض إسرائيل وهم ينظرون إليها على أنّها مكان الوعد الإلهيّ، ولن تكون عودتهم إليها إلا من خلال مُعجزة. وبالفعل عاد الكثيرون منهم منذ سبعين عامًا.

المفارقة في الأمر تكمن في أنّ واحدة من الأحداث الّتي دفعت معظم اليهود إلى القيام برحلة العودة– أعني المحرقة (الهولوكوست)– كانت فظيعة للغاية لدرجة أنّ بعضًا منهم، بعد أن وصلوا إلى هناك لم يعودوا قادرين على الإيمان بالله، وربّما هذا هو السبب الذي يجعل غالبيّة اليهود الإسرائيليّين علمانيّين. إنّ مَصدر الاعتقاد اليهوديّ، بأنّ خطّة الرّب لجعلِ "إسرائيل" وطنًا قوميًّا لليهود، هو الكتاب المقدّس، وهو كتاب يعتبره المسيحيّون أيضًا كلمة الله (نضيف قسمًا إضافيًّا ندعوه "العهد الجديد"، والّذي يُلقي ضوءًا مُحدّدًا على القسم الأول،

أي "العهد القديم"). لا أريد الخوض هنا في التفسير اليهوديّ هذا، ولكن بدلًا مِن ذلك أودّ أن أطرح على هذا الكتاب سؤالاً أكثر جوهريةً: ما الّذي يُعلّمنا إيّاه هذا الكتاب عن موضوع "الوطن" بحدّ ذاته؟

فلننتقل الآن إلى الكتاب المُقدّس لنجد الجواب فِي بداية التاريخ الّذي يرويه. فهو يبتدئ بِخلق الله للعالم. ففي الفصل الأول من الكتاب نجد أنّ هذا الكوكب الماديّ خُلق لنا ليكون لنا وطنًا. ومن ثَمّ يتابع الكتاب في تعليمنا المزيد عن هذا الأمر، مُشيرًا إلى أنّه يجب تلبية ثلاثة شروط لكي يكون هذا الكوكب وطنًا لنا:

١- يجب أن يكون مكانًا يصفه الربّ بأنّه حسنٌ جدًّا، أي مكان خالٍ مِن العُنف أو المرض أو الموت (التكوين ١:٣١).

٢- يجب أن يكون مكانًا للثقة المتبادلة وللمحبّة في العلاقات الإنسانيّة (سفر التكوين ٢:٢٥).

٣- الأمرالأكثر أهمّية أنّه يجب أن يكون مكانًا يتواجد فيه الربّ بطريقة خاصّة بيننا (سفر التكوين٣:٨).

فهذا هو الأمر الذي خلقنا لأجله: من أجل شراكة مع خليقة صالحة، مع بعضنا البعض ومع الله. فإن كان ذلك متوفّرًا لدينا، عندها نكون بالفعل "في البيت/ الوطن". فأوّل صورة للوطن في الكتاب المقدّس هي جنّة عدن (التكوين ٢).

وفقًا للكتاب المقدّس فقد تمّ استيفاء هذه الشروط في البداية. كان آدم وحوّاء في "الوطن". هذا يعني أنّه في بداية التاريخ قد حلّ أهلنا الأوائل فيه. فما الذي تتمنّاه النفس أكثر من أن تكون في وطنها؟ غير أنّ الرواية الكتابيّة تستمرّ في السرد: لقد خسر آدم وحواء وطنهما وطُردا من الجنّة بعيدًا عن الله. هذا يتوافق مع جزء مركزيّ من تجربتنا الإنسانيّة الكونيّة، أي أنّ ما نسمّيه وطنًا يبقى دائمًا محطّمًا بطريقة ما. فالعالم من حولنا مليء بالموت، علاقاتنا ببعضنا البعض تتسم بعدم الثقة والتلاعب، العلاقة مع الله أضحت بعيدة وباهتة. لقد طُردنا جميعنا من عدن. فما هو السبب في ذلك؟ وفقًا للكتاب المقدّس، لقد نتج ذلك عن قرار الإنسان في محاولته أن يكون هو نفسه إلهه الخاص بدلاً من ترك الإله الحقيقيّ أن يكون إلهًا (سفر التكوين ٤-٥). لذا كان علينا أن نخرج من حاضره، أي حضور خالق الوطن.

ليس ذلك نهاية الرّواية الكتابيّة، إذ إنّها تتابع سردها. فبعد هذه الأخبار السيّئة تبشّرنا الرواية ببشارة صالحة: الأمور لن تبقى على ما هي عليه، فالربّ سيحرص على إتمام خطّته،

"الاعتقاد اليهوديّ التقليديّ هو أنّ الله قد منحهم أرض إسرائيل على أنّها المكان الوحيد الذي يمكن أن يسمّوه وطنًا حقيقيًّا ونهائيًّا."

ولكن وفقاً للشهادة النبويّة، فقد خُلقنا لأمر لا يستطيع النظام الحالي للأشياء تحقيقه. يمكن أن تكون كلّ خطوة نحو تحقيق قدر أكبر من العدالة والسلام بمثابة إشارة إرشاد وتوجيه تشير إلى حقيقة ما وراء عالمنا المكسور، ولا يمكن أن يحقّقها إلا الرّبّ نفسه.

يجدّد الأرض ويعيد الأمور إلى نصابها من جديد. هذا الأمر سيكون كما يصفه الأنبياء بطرق مختلفة: في خليقة مستقبليّة مُجدّدة لن يكون هناك موت ومرض (مثلا سفر الرؤيا ٤:٢١)، سيحبّ الناس بعضهم البعض ويثقون ببعضهم البعض ولا يتعلّمون الحرب في ما بعد (مثلًا اشعياء ٢:٤)، وسيكون الربّ في وسطنا (سفر صفنيا ٣:١٧). يومًا ما سنصل حتمًا إلى "البيت/الوطن".

ماذا يعني كلّ ذلك لتجارب الفلسطينيّين واليهود اليوم؟ هناك أمر واحد واضح: إن قمنا بقياس التجارب المعاصرة لليهود الإسرائيليّين على ضوء أسفارهم المقدّسة، فإنّهم ليسوا "في الوطن" تمامًا. حتّى لو افترضنا أنّ الله أعادهم بالفعل إلى هذه الأرض، فإنّ اليهود المؤمنين الّذين يقرؤون كتبهم المقدّسة يعرفون أنّ البلاد، كما هي اليوم، ليست المكان الذي وعد الأنبياء به. فطالما أنّ الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه غائبة، فإنّ بني إسرائيل ما زالوا يعيشون في الشتات، حتى لو كان ذلك داخل حدود دولة يهوديّة. وماذا عن الفلسطينيّين؟ للفلسطينيّين تصوّرات مُختلفة حول الحلّ الأمثل لمشاكلهم:

دولة فلسطينيّة، دولة عربيّة – يهوديّة مُوحّدة، دولة إسلاميّة، وهناك حتّى من يفضّل أن يكون تحت الهيمنة اليهوديّة. لا أريد هنا أن أصدر الأحكام حول الحلّ الذي يقرّبهم من "وطنهم". ولكن وفقًا للشهادة النبويّة، فقد خُلقنا لأمر لا يستطيع النظام الحالي للأشياء تحقيقه. يمكن أن تكون كلّ خطوة نحو تحقيق قدر أكبر من العدالة والسلام بمثابة إشارة إرشاد وتوجيه تشير إلى حقيقة ما وراء عالمنا المكسور، ولا يمكن أن يحقّقها إلا الرّبّ نفسه.

هذا هو الّذي سيأتي فِي النّهاية. وماذا نفعل في هذه الأثناء؟ للأسف ليس لديّ مساحة للإجابة عن هذا السؤال. ربّما سيكون هناك فرصة سانحة في مناسبة أخرى.

د. فيليب سامبتر

حاصل على إجازة في الانتروبولوجيا الثقافيّة وماجستير ودكتوراه في علم اللاهوت – تخصّص العهد القديم. كان موضوع أطروحة الدكتوراة لديه الهرمنيوطيقا (علم التأويل) اللاهوتيّة ومزامير داود. يعيش حالياً في ألمانية، ويعمل أستاذاً للعهد القديم، واللّغة العربيّة في ثلاثة معاهد ألمانيّة، وهولنديّة، وأمريكيّة (أونلاين). عاش خمس سنوات في النّاصرة، وعمل ضمن المجتمع المسيحيّ العربيّ هناك.

الوجه الآخر لصورة الوطن في أدب المهجر, ثنائيّة المرارة والحنين

أ. د. جورج طراد *

ليس جديدًا على الإطلاق الكلام على المركز الأساس الّذي احتلّه الوطن في نتاج أدباء المهجر، ناثرين وشعراء. فثمّة أطاريح جامعيّة وكتبٌ ودراسات ومقالات متفرّقة تناولت هذا الموضوع وتبسّطتْ فيه حتّى استنفدته، أو كادت.

لكنّ عيب هذه المقاربات، بشكلٍ عامّ، أنّ نظرتها إلى الموضوع كانت فولكلوريّة. بمعنى أنّها ركّزت على الوجدان العاطفيّ لدى المُهجريّين، حيث عاشوا بعيدًا عن الوطن وظلّوا يحنّون إليه، ويسترجعون ذكرياتهم فيه، ويتلوّعون شوقًا إلى مطارح الطّفولة وملاعب الصّبا.

لكنّ هذه العاطفيّة، الغرائزيّة إلى حدٍّ بعيدٍ، ليست سوى القشرة السّطحيّة التي تُغطّي جسد الوطن، كما رأى عددٌ كبير من الأدباء المهجريّين. مِن هنا فإنّ الغاية الرّئيسة لهذه المُقاربة، الآن، هي النّظرُ في الوجه الحقيقيّ والعميق لصورة الوطن في أدب المهجريّين. وقد لا أكون مُغاليًا إذا ما قلتُ إنّ الوطن الحقيقيّ الذي نستشفّه من كتابات أدباء المهجر قد لا يمتّ بصلة قويّة إلى الوطن الفولكلوريّ الذي عمَّمَتْهُ الرّومانسيّات العاطفيّة الهشّة. فالجزء الظّاهر من علاقة المهجريّين بوطنهم، عبر المرآة العاطفيّة، لا يُقاس بالجزء الباطن والمخفيّ، لا من حيث الأهمّيّة، ولا من حيث التّأثير، ولا من حيث حجم المعاناة.

ولا أظنّني في حاجة إلى الإشارة صوبَ الحنين الذي يعتمل في صدور المهجريّين مِن أمثال رشيد أيّوب (١٨٧١– ١٩٤١) القائل:

يا ثلجُ قد هَيَّجتَ أشجاني ذَكَّرتَني أهلي بِلُبنانِ

أو إيليّا أبو ماضي (١٨٩٠– ١٩٥٧)، الّذي عاد بعد طول غياب في المهجر، ليخاطب وطنه بقصيدة جرت على كلّ شفة، يقول مطلعها:

«وَطَنَ النّجومِ أنا هُنا حَدِّقْ أتَذْكرُ مَنْ أنا؟».

وأبو ماضي نفسه، يتبنّى المقولة الفولكلوريّة التي تربط كثافة الهجرة بالحبّ الفطري للّبنانيّين للسفر، فيقول:

لبنان لا تَعذِلْ بَنيكَ ركبوا إلى العَلياءِ كلَّ سفينِ

لم يهجروكَ ملالةً لكنّهم خُلِقوا لصيدِ اللّؤلؤ المَكنونِ

لكنّ هذه المَفاخرة الضّمنيّة بِعشق اللّبنانيّ للمغامرة سرعانَ ما تُخلي المَكان أمام الكشف عن السّبب الحقيقيّ للهجرة عمومًا ولِهجرة «أبو ماضي» تحديدًا، حيث يقول:

وطنٌ يضيقُ الحرُّ ذرْعًا عندَهُ وتراهُ بالأحرارِ ذرعًا أضْيَقا

مَشَتِ الجهالةُ فيه تسحبُ ذيْلَها تيهًا وراحَ العلم يمشي مُطْرِقا

لا يرتضي دينَ الإلهِ موفِّقًا بينَ القلوبِ ويَرْتَضيهِ مُفرِّقا

ويصل به الأمر إلى ذروةِ نقمةٍ عارمةٍ، فيصرخ مُعلنًا خيبته مِن قومهِ قائلًا:

قومي وقد أطرَبْتهمْ زمنًا ساقوا إليّ الحزنَ والكَمَدا

هم عاهدوني إن مَدَدْتُ يدي ليمدّ كلُّ فتًى إليّ يدا

لكنّني لمّا مَدَدْتُ يدي وأدَرْتُ طَرْفي لم أجدْ أحدا

وهذا مهجريٌّ آخر هو الشّاعر الياس فرحات (١٨٩٣-١٩٧٦) يحاكي إيليّا أبو ماضي نقمةً على مواطنيه المتخاذلين الخاضعين الذين لا يحرّكون ساكنًا في وجه الظّلم والاضطهاد، فيقول:

لبنانُ يوشكُ أن يذوبَ أسى ويكاد الثّلجُ فيه يشتعلُ

وَبَنوهُ أمثالُ الجمادِ، فلا ألمٌ يحرّكهم ولا أملُ

قُتِلَتْ مروءَتُهم وعزّتُهم وإباؤهم فكأنّهمْ قُتِلوا

وصرخته هذه تزداد حدّة ومرارة حين يلاحظ تفشّي ارتضاء الذّلّ والهوان، فيقول:

أرى في شعبِنا بعضًا ذليلًا وأخشى أن يصيرَ البعضُ كُلّا

فإنّ الخَلَّ ليسَ يصيرُ خمرًا ولكنْ قد تصيرُ الخمرُ خلّا

واللّافت أنّ فرحات المنتقد لأوضاع النّاس المتخاذلين في بلاده، ليس راضيًا عن أوضاع أبناء المهاجرين المهجريّين الذين لا يفقهون لُغة آبائهم فتصبح القطيعة مزدوجة؛ رَفضٌ لوضع وطن الآباء ورَفضٌ لوضع مستوى الأبناء، فيقول:

وَصَلَتنا بأبينا لغةٌ لم تَصِلنا بِبَنينا الظُّرَفاء

إنْ نَقُلْ قَولًا فصيحا بينَهمه ردَّدوه بلسانِ الببّغاء!

هذا التّمزّق بين الآباء وبين الأبناء – بين الوطن السابق وذكريات الماضي، وبين وطن المهجر القائم – يُعبّر عنه بِحيرةٍ بالغةٍ، الشّاعر المدنيّ، قيصر سليم الخوري (١٨٩١– ١٩٧٧) حين يقول من البرازيل:

يا برازيل لو دَعَتْني بلادي يومًا، لا عذرَ لي، سوى أن أسافرْ

لكنّ هذه العاطفيّة، الغرائزيّة إلى حدٍّ بعيدٍ، ليست سوى القشرة السّطحيّة التي تُغطّي جسد الوطن، كما رأى عددٌ كبير من الأدباء المهجريّين.

ربّما يكون هناك سبب عميق لكلّ هذه المرارات الّتي تنتاب مُعظم شُعراء المَهجر فِي موقفهم، غير العاطفيّ، مِن الوطن

لستُ أدري وقد بذرْتُ شبابي فيكِ، هل عائدٌ أنا أم مهاجرْ

والحيرة العارمة هذه تنتاب شاعرًا مهجريًّا آخر هو، نسيب عريضة (١٨٨٧– ١٩٤٦) الّذي يعترف بأنّه عانى في بلاده الأمرّين، ومَع هذا هو يودّ الرّجوع، لكنّ ظروفه لا تسمح له بذلك. يعبّر عن هذه الدّوّامة قائلًا:

أحبُّ بلادي وإن لم أنَمْ قريرَ الجفونِ بأحضانِها

فكمْ أنَّتِ النّفسُ من يأسِها وناءت بأثقالِ أشجانِها

تَوَدُّ الرُّجوعَ إلى عُشِّها وليسَ الرّجوعُ بإمكانِها

أمّا الشّاعر فوزي المعلوف (١٨٨٩– ١٩٣٠) فتمزّقه دامٍ، فهو متعلّق بأهله في وطنه، ولكنّه كارهٌ لأوضاع بلاده المزرية، يقول:

قَسَمًا بأهلي لم أفارقْ عن رضى أهلي وهم ذخري وركنُ عمادي

لكنْ أنفتُ من الحياةِ بمَوْطِني عبدًا وكنتُ بهِ من الأسيادِ

وهذا شقيقه الشّاعر شفيق المعلوف (١٨٠٥– ١٩٧٧) يشرب من النّبع نفسه إذ يعاني من ذكريات الخيبة وقسوة الأوضاع في وطنه رغم اغترابه عنه إلى البرازيل، يقول:

وطني موطن الغريبِ ولا أملك منهُ حتّى الحصى والتّرابا

وِردُهُ في فمِ الدّخيلِ فما يمَّمْتُ وِردًا إلّا وجدتُ سَرابا

حالة الذّلّ هذه في الوطن المُحْتَلّ والمُسْتَغَلّ، هي التي دفعت بمهجريّ آخر، شاعر وناثر وفيلسوف، هو ميخائيل نعيمة (١٨٨٩– ١٩٨٨) إلى التّعبير عن خيبته الكبرى في قصيدة «بعد الحرب»، حيث يقول في مقطعها الأخير:

أخي! مَن نحنُ؟ لا وطنٌ ولا أهلٌ ولا جارُ

إذا نِمْنا، إذا قُمْنا، رِدانا الخزيُ والعارُ

لقد خُمَّتْ بنا الدُّنيا كما خَمَّتْ بمَوتانا

فهاتِ الرّفشَ واتبَعني لنَحفِرَ خندقًا آخر

نواري فيه أَحَيَانَا!

ربّما يكون هناك سبب عميق لكلّ هذه المرارات الّتي تنتاب مُعظم شُعراء المَهجر فِي موقفهم، غير العاطفيّ، مِن الوطن. هل لأنّهم بعيدون ويحاربون «بالنّظريّات وبالنّظّارات»، كما يقال؟ أو لأنّهم غير مطّلعين على الحقائق، والوقائع كما هي، في زمن التّواصل البطيء والإعلام البارد عبر المسافات؟

حتّى جُبران خليل جبران (١٨٨٣ – ١٩٣١) الّذي يُفاخر بانتمائهِ إلى وطن اسمه لبنان: «أنا لبناني ولي فخر بذلك». وتألّم لرؤية بني أُمّه أذلاء خمولين عاَجزين: «يا بني أمُّي. نَاديتكمْ فِي سَكينة اللّيل لأريكم البدر وهيْبة الكواكب فهبَبْتم مِن مُضاجعكم مَذعورين وقبضْتم عَلى سيوفكم ورماحكم قائلين: أين العدوّ لنصْرعه؟ وعند الصّباح وقد جاء العدوّ بخيْله وبرجاله ناديْتُكم فلم تهبّوا مِن رقادكم .. أنتم يا بني أمّي وُلدْتم شيوخًا

عَاجزين ثمّ صغُرتْ رؤوسكم وتقلّصتْ جلودكم فصرْتُم أطفالا تتقلّبون عَلى الأوحال وتترامون بالحجارة «.

أمين الرّيحانيّ (١٨٧٦– ١٩٤٠) يُنحي باللّائمة على بُعد المسافات وانفصال المهجريّين عن النّبض الحقيقيّ للشّعب، ما يُوَلّد عندهم كلّ هذه المرارات. يقول الرّيحانيّ:

«أَنتم فِي المَهجر تُطْلِقون مُدافعكم فِي الهَواء. عودوا إلى الوطن إن كنتم حقًّا تُحبّون الوطن، وجَاهدوا مَع المُجاهدين، وجوعوا مَع الجَائعين، وأدخلوا السّجونَ مَع المُتمرّدين. هنا يا أخي ساحة العمل، لا في نيويورك ولا سان پاولو ولا بونس أيرس».

إنّها الصّورة القاتمة. إنّها الوجه الآخر لعلاقة أدباء المهجر بِوطنهم. وأحيانًا يكون الوجه الآخر أكثر صدقًا وأشدّ تعبيرًا من الوجه الظّاهر!

أ. د. جورج طراد

كاتب وأستاذ جامعيّ

يحمل دكتوراة في نقد الشعر العربي الحديث من جامعة السوربون. ودكتوراة في لغة الشّعر الحديث من الجامعة اللّبنانيّة. له عشرات المؤلفات والدراسات في الأدب الحديث، وأدب المهجر، وثنائية الفصحى والعامية. حاليًا هو أستاذ عضو في معهد الدكتوراة في كلّ مِن الجامعة اللّبنانيّة وجامعة القديس يوسف في بيروت، وله خبرة واسعة في صناعة المجلات من سياسيّة، وثقافيّة، وحضاريّة.

مختارات من الشعر حول الوطن المتخيّل والكيان السياسي

متوائمة الروح والجسد في نصوص شعرية حديثة

أنطوان يزبك *

لطالما حمل الشّعر الحقيقيّ على منكبيه العاريين من التزلّف والزيف، مركبة جوّابة آفاق تحمل من عطر الوطن العذب والزكي الشيء الكثير، بحيث تدور باحثة متجوّلة في كلّ الأقطار، سياحة روحية أحيانًا، وأحيانًا أخرى، تعبيرًا ثقافيًا ثاقبًا عن أقانيم الحب والخير والجمال.

والشّعراء كما عهدناهم، أصحاب رؤى يذهبون إلى مرامٍ بعيدة ليرفعوا من مفهوم الوطن. وفي البال دائمًا أنّ الوطن بالنسبة للشاعر، أي شاعر، قد يكون معادلًا لذات فوقية، سامية متطورة وحتّى مُتفوّقة تأخذ مِن ذاتها لكي توزّع على من حولها مشاعرًا غير مسبوقة، صعودًا إلى أحاسيس وإلهامات متجاوزة، كما في الرؤية المنسوبة إلى "عبقر" وادي الشّعر في أساطير محبّبة، أو الكون "النتشويّ"؛ ما بعد تقوّل الأفول الرّبوبيّ فِي عصر اِنحطاط الآلهة!..

أمّا إذا حاولنا أن نقيس ذات الشّاعر بمعايير الذّات الإلهيّة الكبرى، بما تحمله مِن مشاعر وما تكتنفه من أحاسيس مُبعثرة ولكن مُنعشة وريّانة، نجد أنّ هذه الذات قمينة بكلّ ما قد قدّمه لها الوحي، كما جبلت مَع تُراب الأوطان كلّ قوى الطّبيعة الّتي تُطلق العنان للأسرار الأورفيّة المتجدّدة، والّتي تبحث حثيثًا عن الزوايا الأكثر حميميّة والأقرب إلى العاطفة والأوفى إلى القلب!

يُطرح السّؤال هنا: هل الوطن مجرّد صور باقية في متن القصيد، أم كيان سياسي ومكاني ماديّ، وأرضٍ صمّاء ساكنة صلدة، ولا شئ آخر، أم مكان نشعر فيه بالرّاحة والطمأنينة فيجلب لنا سكينة النّفس وأوقات الدّعة والفراغ وعدم الخوف من عتمة الروح؟

لا ننسى أنّ هنالك شعرًا ارتبط بالثورات والمُعاناة، كشعر محمود درويش في قصيدته الشهيرة "عابرون في كلام عابر" حين، يقول:

"ولنا ما ليس فيكم: وطنٌ ينزف وشعبٌ ينزف

وطنٌ يَصلحُ للنسيان أو للذاكرة".

وربّ سائل آخر حصيف يطرح أسئلة بسجيّة العارف والعليم:

هل كنّا نهرب صراحة من واقعنا المرير إلى "شانغريلا" الشّعر ولا نزال، نَحنّ الى جزيرة طائر الرخّ لكي يحلّق بنا بعيدًا كما حلّق بالسندباد، وأنقذه من تهلكة باتت أكثر من محتومة، أم أننا نهجع في أروقة قصر "الجميلة والوحش" لنبتكر عالمنا الشعريّ الخياليّ...؟

أم أنّ الحالة الشعريّة لا تعدُ سوى فكرةٍ وجدانيّة تتنقّل بين الواقع والمُتخيّل، وبين ما يترسّب من فلذات الكينونة في تربة الواقعيّة الصُّلبة، ليتحوّل الكون الشعريّ إلى تصاوير لِلحزن، حزن وافد من أوطان سجينة ومدائن المرارات والأحزان التي لا تنتهي، مدن السواد المؤدّية بأهلها إلى الهلاك والضياع والاضمحلال!..

يقول" كاميل سانت ساينس" المؤلّف الموسيقيّ، الذي اشتهر برائعته "كرنفال الحيوانات":

"إذا كان الفنّ لا يملك وطنًا، فالفنّانون يمتلكون واحدًا!".

عَلى ضوءِ هذا القول، لا يسعنا سوى أن نبني للشعر موطنه، ليصبح واجب الوجود كما لو أنّ الفكرة ستتجسّد حتمًا، والمكان سوف يتماهى مع الكلمة الشّعريّة، بمشهدٍ صارخ لوحدة أزليّة مُباركة ترقص على مسرحها آلهة الأرض، وتصفّق لها ربّات الجمال في فردوس أرضي، ماديّ، نَلمسه، ونعاينه، ونراه في

إذا كان الفنّ لا يملك وطناً، فالفنّانون يمتلكون واحداً

عرس الحواس وساعة الانقشاع.

في مقابلة خاصة أجراها الكاتب والأكاديمي؛ الدكتور متري بولس مع الكاتب والمفكر الكبير ميخائيل نعيمة ناسك "الشخروب"، يقول نعيمة :

لا أستطيع أن أُحلّل لك ما كانت تفعله في نفسي إطلالة الشمس من وراء صنين وإطلالة القمر في اللّيل، ومدى تأثّري بالأنغام السابحة بالفضاء طوال الليل!..

نستشفّ من هذا الكلام، ماهيّة الوطن بالنسبة لميخائيل نعيمة. فهو بالإضافة إلى الطبيعة الراسخة في جلاميد الصخور والأمداء المترامية، هنالك المشاعر الداخليّة والأحاسيس العصّية على الوصف والفهم، ولو تمّ التعبير عنها بالكلمات والأساليب الأدبيّة؛ فالطبيعة والوطن والإنسان يتداخلان إلى حدّ بعيدٍ، كما في مذهب الحلوليّة، ووحدة الوطن والأرض والإنسان، كذلك في مسارات الفكر الأدبيّ والإنسانيّ والانتروبولوجيّ حتّى، في حال العودة إلى الأصول البشريّة، وتاريخ بداية الفكر.

لم يتوقّف الشعراء يومًا عن تسخير خيالهم، من أجل خدمة المكان والوطن في المتخيّل الجامع لكلّ المشاعر بحثًا عن الجمال والإبداع في محاولة جاهدة لصناعة فردوس أرضي جديد، ولكن النّظرة الحديثة للشعر والأدب ترصد مرام وأولويات مختلفة ومتجدّدة، يقول أوسكار وايلد في هذا الصدد ما يلي:

"نحن نعيش في زمن حيث نقرأ كثيرًا، لكي ندرك الحكمة ونفكر كثيرًا لكي ندرك الجمال".

وقد يقول قائل أنّ الجمال بحدِّ ذاته، كامنٌ في الأرض عينها، وموجود في كل ذرّة من ذرّات الطبيعة وتحديدًا في طبيعة الوطن الّتي تلفُّنا مِن كلّ حدبٍ وصوبٍ، والإنسان

كما يقول أوسكار وايلد: "يغذّ السير حثيثًا نحو المعرفة والبحث والاستكشاف من أجل الحصول على هذا الوطن الحلميّ ومروج السعادة المرتجاة". ويقول حافظ إبراهيم في هذا الصدد، وهو يصف كلّ إنسانٍ مغامر:

"ما عابَهم أنّهم في الأرضِ قد نثروا

فالشُّهبُ منثورةٌ مُذ كانت الشُّهبُ

رادوا المجاهِلَ في الدّنيَا ولو وُجدُوا

إلى المجرّةِ ركبًا صاعدًا رَكبوا".

فِي شعر حافظ إبراهيم صورة واضحة عن تلك العلاقة بين الأرض والروح والوطن، أمّا فِي الشّعر الحديث، فالشّواهد عديدة وتُساعد على بلورة الفكرة أكثر، تقول نهاد الحايك في قصيدة "ضباب"، من ديوان "إعترافات جامحة" (٢٠١٥)، وهي شاعرة لبنانية ولدت في لبنان بيد أنّها عاشت في نيويورك:

"يَحِلُّ الشفَقُ على نيويورك،

فيتساقطُ على القلبِ ليلٌ شاسعٌ

وتَرْتَجِفُ الذاكرَة ..

كأنَّني هَجرَتْني بلادي.

يَبزُغُ الفجرُ في نيويورك،

فيزورُ البالَ حلمٌ ضائعٌ

وتَنتفِضُ الذاكرَة..

أين أنا؟

كأنَّني حَلُمَتْ بِبِلاديّ.

أَشُقُّ الأرصفةَ كجَدْوَلٍ يبحثُ عن نبعِهِ

عَبْرَ مُنعَرجاتٍ حالِكةٍ،

وأَهيمُ في عالَمٍ يَمْتَدُّ كمرآةٍ

حافلةٍ بما لا يُلمَسُ..

كأنَّني أضاعَتْني بلادي.

أَبحثُ على الوجوهِ

عن علامةٍ،

وأُخفي نارًا اسمُها وطنٌ،

> **نحن نعيش في زمن حيث نقرأ كثيراً، لكي ندرك الحكمة ونفكر كثيراً لكي ندرك الجمال**

أو جرحٌ مفتوحْ،

سؤالٌ مُشَرَّدٌ في صحراءِ الروحْ..

كأنَّني لا شِفاءَ لي مِن بلادي.

يَمضي العمرُ في نيويورك،

وأنا أُلَمْلِمُ أبجديةً مُبَعْثرةً،

وأَزدادُ غموضًا..

مَن أنا؟

كأنَّني بَدَّدَتْني بلادي.

أَسْحَبُ ذكرياتٍ شاردةً،

أَشُقُّ اليَمَّ إلى الأُفُقِ،

فَلا أَجِدُ سوى شمسٍ أبعدَ بَعْد،

دُونَها كَثيفُ السَحَابِ..

كأنَّني نَسِيَتْني بلادي.

شِراعي مُرتَجِفٌ،

لا تُدركُهُ الرياحُ المؤاتِيَة.

كَمْ من الشِعر يَلْزَمُني

لأَمْخُرَ هذا الضباب؟".

ثمَّة في هذه القصيدة أصدق صورة عن مدى تمازج العاطفة، مَع المكان الثابت في روعنا وفي المُتخيّل وكم تبلغ حدّة الشعور، حين نُسافر، ونُهاجر، ويتحوّل الوطن، الوطن الجميل إلى مُشتهى، وحيث تَشتّد حِدّة المُقارنة بين الوطن الأم، ووطن الإقامة، وذلك الوطن الدَّاخليّ المُؤلّف مِن ذكرياتٍ، وطفولةٍ، وفتوّةٍ، وكهولةٍ، بِحيثُ ساهم لاوَعْيُنَا، وأفكارنا، وهواجسنا، في تشكّيل "نوستالجيا" خاصّة تأخذنا إلى مَشاعر لم يكن لنا بها أدنى معرفة!

وَفي قصيدة "أرض تُولَد فِي الذَّاكرةِ" أيضًا مِن ديوان "اِعترافاتٌ جامحةٌ"، تقول نِهاد الحايك:

"ليتني لِلصّحراء نَخلة،

أو سَعفة، همس حفيفها أعذب مِن كلّ الأشعار!

لكنّني غبار".

> **يبقى الشّعر في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود يعبّر عن ذات كبرى، موجودة في كلّ واحد منّا**

أمّا في قصيدة الشاعرة يُسرى البيطار "شهقة الفجر"، فنقرأ:

"كي أُغوِيَ اللّيلَ والأنسامَ بالعطرِ
بلّلْتُ بالدمعِ شوقَ الخدّ والنّحرِ
ورحتُ أَصعدُ في التّنهيد أعبُرُهُ
كما عبرتُ قُرَى مِن سالفِ العصرِ
هي الأماكنُ أوفى في تشبّثِها
بمَن تحبُّ وإنّ الأرض لا تسري
ألقيتُ حبّي على الأغصان تعرفُهُ
وتعرفُ الوَرَقَ المغسول بالشعرِ
حملتُ ضوءًا وذاك العتمُ أتعبَني
ويؤلِمُ الرّيُّ ما قد ماتَ في الزهرِ
ورغمَ ما كان ممّا لستُ أذكرُهُ
جلستُ أقرأُ إخلاصي على النهرِ
سامحتُ حتى انحنى قلبي على جسدي
وهبّت الريح في أوراقيَ الخضرِ
لكنّ يُسرَى كما لا شيءَ يشبهُها
ولا ينالُ الأسى مِن شهقة الفجرِ

أُبدي الغضاضةَ تحت الثوب ناصعةً
كما بدا البرقُ في تلويحةِ الصدرِ
واللّيلُ رطبٌ وأعنابٌ تدورُ على
ثَغر المدائنِ حتّى عَذبةِ الخمرِ
أمسكتُ بالدمع حتّى لا أزِلّ كما
أمسكتُ بالبدر ملهوفًا على الخصرِ
"ولاحقًا"، قالَ: "نحكي لاحقًا" أدَرى
ببالغِ الشوقِ؟ لا، بالشوقِ لا يدري

فِي قصيدة يُسرى البيطار، عُبور يتخطّى الزّمان والمكان، يتخطّى العصور والمسافة، وتتحوّل العلاقة بين الحب والروح والأرض إلى كينونة واحدة، إذ لا ريب في أنّ الأرض تتشبّث بِمن يحبّ ويعشق، ذلك الّذي حبّه ينبثّ في كلّ مكان وكلّ زمان، كما في "اليوغا" أو تأمّل راهب تيباتيّ: "اوم ماني بادمي هوم"، الجوهرة في زهرة اللُّوتس! دعوة صريحة إلى الإمتلاء مِن وحي الخلائق العلويّة، كما الفراغ مِن كلّ مَا يملأ الكون وينتشر فيه!.

يبقى الشّعر في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود يعبّر عن ذات كبرى، موجودة في كلّ واحد منّا والعبرة في اِمتلاك أدوات قراءة واضحة لِصفائح الأفكار الهائمة في مدارات هذا الفضاء اللّامتناهي في الامتداد وغير المحدود في الابتعاد!

د. انطوان يزبك

من مواليد عام ١٩٦٥ بيروت, مُجاز في الأدب الفرنسيّ، وكذلك الفلسفة، وتابع دراساته العليا في "الانتروبولوجيا" اللاهوتيّة ، كما حصل على شهادة التَّميز في الصّحافة المكتوبة من شبكة المحرر نيوز، بالإضافة لدراسته سنتين بتخصص علم النفس، وله العديد من المؤلفات العلميّة والفلسفيّة والأدبيّة، إلى جانب نشاطه في مجالي الترجمة والنّشر في المجلات العلميّة، ومنتسب لعضويّة عِدة جمعيات علميّة، وأدبيّة.